

يجمل بنا ونحن على عتبة الربيع ان نلقي نظرة على الشباب الناشىء ، فكلاهما جمال وأمل ، وكلاهما محبة وايمان .

فمن الربيع يستمد النشء خصب الشعور ، ومن ماويته يستمد النماء والمروءة والارادة ، والقوة المبدعة التي نشهدها على اديمه هي اجمل نداء الى النشاط البشري ، واروع امثولة تعطى للحياة .

الربيع .. هو ملاك الاحلام الوردية التي ترفّ على سرير الطفل ، وتسبغ عليه المحبة والحنان واللعب والازهار . هو صديق الاعياد ، وصديق الشعراء ، وصديق المتأملين والمحبين . هو زرع الشباب وحصاد الكهولة وتذكار الشيخوخة . هو الشجرة الخضراء ، شجرة الرجاء ، تنمو في تربة الجمال ، وتورق في جو الحب والسلام .

سعيدٌ هو الرجل الذي يحتفظ بنشأة الربيع في نفسه ، فيفتح للحياة عينين مسحورتين بجمال ما تنثر الطبيعة حوله من الجواذب .

وسعيد هو الرجل الذي يحتفظ في نفسه ببراءة الطفولة وطراوة الشعور ، فاذا اساء فبدون عسف ولا رداءة قصد ، واذا احب فبسلامة سريرة وحسن طويّة .

وهل الربيع الا الحبَ ذو الازهار النامية في حديقة الحياة ، الازهار المغمورة بالندى ، ازهار الغبطة وازهار الشمس ، ازهار المساء الشفافة العطرة ، ازهار المحبة التي تلهو النفس بعطورها عن الاشواك ؟

الربيع .. هو شاعر الحياة يحول مآسيها الى اعياد ، ومآتمها الى اعراس ، واعاصيرها الى انغام ، ولوافحها الى عطور ، وصواعقها الى انغام عذبة ، وجفافها الى خصب نديّ .

وكما تنقطع الامطار المدارة في الشتاء ، ويستعيد هواء الجنوب مجراه الطبيعي ، وتطرح الغيوم العاصفة الى الشمال ، وتظهر الشمس في غلالة ذهبية شفافة كأنها بخار الندى ، هكذا يظهر الربيع من كهوف الشتاء الكئيب ، وهكذا يظهر الامل !

والربيع .. هو الشباب في بهجته الاولى ، في جماله الناصع واشراقه الفوريّ ، في كبريائه الوادعة وطموحه البريء .

اخوان لكل منهما رسالة ، وكلتا الرسالتين واحدة ، هي رسالة الفضيلة .

فضيلة الربيع في ازهار الشجر وماويّة النبات ، في الفضاء العطري والهواء الدافىء ، في موسيقى الطبيعة وانسجام الانوار والظلام ، في ارسال الشمس لتطهير ما بقي من بؤر الشتاء — فضيلته التمهيد للصيف .

وفضيلة الشباب في صيانته البراءة الاولى في نفسه ، في محافظته على ماويّة الحب ، وفي اثمائه قوة الامل — فضيلته التمهيد للكهولة .

للربيع رسالة الطبيعة ، وللشباب رسالة الحياة .

البير اديب

القصر والمعمل

بقلم ميخائيل نعيمه

على ضفة نهر شوهتها المداخن معمل للذخائر الحربية افنى من السنين قرناً وبعض القرن ونال شهرة واسعة حيث لا تزال للحرب شهرة . وقبالة المعمل ، على الضفة الثانية ، رابية خضراء مصونة بالحديد . وعلى الرابية قصر حدته القصور .

وبين المعمل والقصر صلة الوالد بالولد . فالمعمل انجب القصر وما انفك يعطف عليه ويغذيه . والقصر ما عق يوماً والده ، ومابرح يسوسه سياسة البار لابيه .

لقد كان القصر لثلاث سنوات خلت قبلة الزائرين من ذوي اليسار والاناقة والوجاهة ، يأتونه من كل حدب وصوب ، فيجد فيه كل غاو غرايته من انس وطرب ، وفن وأدب ، ومأكل ومشرب ، ولهو وعبث . ففي الاسطبلات اكرم الجياد محتداً ، واعرق الكلاب نسباً . وفي الاقفاص ارخم الطيور صوتاً واجملها شكلا واندرها جنساً . وفي النهر اصناف من الزوارق للنزهة . ومن حول القصر احواض للأسماك والسباحة ، وساحات لشتى الالعاب الرياضية . وفي داخل القصر من نفيس الرياش والتحف ما يجل عن الوصف والتقدير .

اما اليوم فالاسطبلات خالية من الجياد والكلاب . والاقفاص لا ريش فيها ولا صوت . والاحواض لا سمك ولا ماء . وساحات اللعب تكسوها الاعشاب . وليس في النهر عند اسفل الربوة سوى زورق واحد يجري بالكهرباء . والقصر لا ينتفض فيه وتر ، ولا تسمع قهقهة ، ولا يقرع منه باب . فقد طار منه الانس يوم طار صاحباه الى حتفهما ، فانتقل من بعدهما ، مثلما انتقل المعمل ، الى وحيدهما وهو ما يزال الى العشرين اقرب منه الى الثلاثين .

وهذا الوريث ما ابقى على شيء من آثار البذخ والترف سوى سيارة وزورق . فالسيارة تحمله في كل صباح ومساء من القصر الى اسفل الربوة ومن اسفل الربوة الى القصر ، والزورق يعبر به النهر الواسع الى المعمل ومنه ، وهو يقود الاثنين بيده .

اما المعمل فقد زاد الوريث في عدد عماله عشرين الفاً ، وفي انتاجه وارباحه عشرة اضعاف . فكان كل من عرفه يعجب لنباهته وحنكته في ادارة اشغاله على حداثة سنه وشذوذ في اخلاقه واطواره . فهو لم يكتف بان كم فم القصر الغريد ، وقص جناحيه ، وسمل عينيه وحجبه عن الناس ، بل انه جرده من انفس تحفه ورياشه ، وصرف كل ما كان فيه من خدم وحشم ما خلا واحداً اسمه شمشون . فقد كان شديد التعلق به الى حد الوله . وما كان يرضاه ان يخاطبه يوماً بقوله « ياسيدي » بل بقوله « يابني » .

وشمشون رجل توسط العقد السابع من عمره ، لكنه ما برح نشيطاً . وهو من بساطة الفكر ، وطهارة القلب ، ونقاوة الضمير ، وعفة النفس ، والتمسك بالتقوى على جانب عظيم . وقد ربي يتيماً في خدمة الشاب ووالديه وجديه من قبله . وشمشون ما احب احداً من افراد العائلة محبته لسيده العازب الفتى ، فقد كان يخشى عليه حتى نفسه ويحبه من بعد ربه .

فعل الشاب ما فعل بقلبه حياة القصر رأساً على عقب ، وشمشون ما اضطرب يوماً ولا جزع . اما في الايام الاخيرة فقد راح يؤلمه اشد الالم هزال متزايد في جسم سيده وحزن عميق اصم في عينيه وحول شفتيه . فلا هو بقادر على سبره ولا الشاب يبوح له به جرياً على عادته في كشف مكنونات نفسه لخادمه الامين . والذي زاد في قلقه وارتباكه ان سيده التفت اليه ذات ليلة وهو منصرف الى النوم وقال له بصوت كسير :

« شمشون ، يا ابت شمشون . لقد سمنت حتى اكاد انشق . »

فاجابه شمشون وقد ظنه مازحاً :

« تبارك الله . لقد سمنت الى حد اني لو نفخت عليك لطرت في الهواء . اتشكو مرضاً يا بني ؟ »

– اجل يا شمشون . ان بي لمرضاً قتالا . وهو مرض الذين ما بهم مرض .

– ألعلك منيت بخسارة كبيرة في اشغالك يا بني ؟

– بل منيت بارباح كبيرة يا شمشون .

– اذن ما بالك تذوب وتذيبني معك ؟

– اواه لو ادري .

– ألعلها الحرب واخبار الحرب تعبث بافكارك وراحتك ؟

– شمشون ، يا ابت شمشون . صل من اجلي .

فكاد شمشون يجزم بان الشاب اصيب بمس من الجنون . لكنه صلى بحرارة فائقة متوسلا الى الله ان يرفه عن سيده وان يكشف له الكآبة الممسكة بخناقه .

ونام شمشون نوم الابرار . وقبيل الفجر سمع صوتا يقول له : اكتب يا شمشون .

فانصاع شمشون الى الصوت انصياع من لا فكر له ولا ارادة ، وتناول قلما وقرطاساً واخذ يكتب والصوت يملي عليه :

ايها السارقون نوم الحزانى كيف تهجعون ؟ ايها اللابسون عري اليتامى كيف تدفأون ؟ ايها الكارعون ري العطاشى كيف تنقعون ؟

ايها الاكلون خبز الجياع كيف تشبعون ؟ ايها الراضعون ثدي الثكالى كيف تسمنون ؟ ايها السائغون ظعن المنايا كيف تمزجون ؟ ايها المستحمون بالدم الحي كيف تطهرون ؟ايها المدلجون، اذ يقبل الفجر، اين تدبرون ؟ايها البائعون سم الافاعي هل سوى السم تربحون؟

وانقطع الصوت . فانتفض شمشون كمن يفيق بغتة من حلم . ولشد ما اذهله ان يرى ورقة في يده وان يقرأ ما فيها فيجده مكتوباً بخط يده ، حتى خيل اليه انه ، هو كذلك ، قد خولط في عقله .

وكان الليل قد تلاشى . فهرول شمشون الى غرفة سيده وقص عليه ما جرى ودفع اليه بالورقة قائلا :

لقد صليت يا بني . ولعل هذا جواب صلاتي . لكنني ما فهمت منه شيئاً .

ما كاد الشاب يقرأ ما في الورقة حتى امتقع لونه ، واعترته قشعريرة سقطت معها الورقة من يده . فانحنى شمشون ليرفعها . لكن سيده شده بعنف من ذراعه وحملق فيه طويلا ثم قال بصوت مرتجف :

شمشون ، شمشون . من علمك التدجيل ومتى ؟

فصعق شمشون ، وانعقد لسانه ، وجف حلقومه ، واظلمت عيناه ، ودار رأسه فارتمى على الارض كأنه الشلو . وعندما ذعر الشاب وادرك سوء ما فعل . فانحنى فوق خادمه يفرك يديه ويقبلها ويناديه :

الي يا شمشون ، يا ابت شمشون . لقد فهمت . لقد فهمت .

وما زال به حتى عاد اليه وعيه . لكن شمشون ما عاتب مولاه بكلمة . بل انطلق في الحال يعد له الحمام جرياً على عادته في كل صباح ليعود ويهتم بفطوره . وفيما هو منهمك باعداد المائدة اذا بسيده يناديه من الحمام فاسرع اليه وما دخل الحمام حتى جمد مكانه . فقد وجد الشاب واقفاً بجانب المغطس وبدنه العاري مصبوغ بلون الدم . ورأى الماء في المغطس كأنه الدم . وتبادر الى ذهنه ان سيده قد انتحر بقطع شرايين يده . لكنه ما عتم ان سري عنه عندما التفت اليه الشاب وسأله بصوت لا خوف فيه ولا تأنيب :

ما لهذا الماء احمر كالدم يا شمشون ؟

فاجابه : لقد كان صافياً كالبلور يا بني عندما اطلقته في المغطس .

– وكان زلالا عندما غطست فيه . فمن اين هذا اللون ؟ من اين هذا الدم ؟

فانكب شمشون على المغطس يفرغ منه الماء ثم يغسله . واطلق الماء ثانية فاذا به اصفى من حدقة الطفل . ثم عاد الى عمله . وما هي الا دقيقة او دقيقتان حتى دعاه سيده ثانية . واذا بالحادث الاول يتكرر . ومن بعد ان تكرر ثلاث مرات متوالية يئس الشاب من حمامه وارتدى ثيابه . وانطلق الى المعمل من غير ان يتناول لقمة واحدة مما كان شمشون قد اعده له . وكل ما قاله لشمشون قبل انصرافه :

ـ لقد فهمت يا ابت . لقد فهمت .

وبقي شمشون نهاره في ذهول وبحران . وكان يرتقب اوبة مولاه بفارغ الصبر علّه يميط له اللثام ولو عن جانب صغير من الاسرار التي تكتنفه من كل جانب . لكن غيبة السيد طالت اكثر من المعتاد بكثير . فطالت معها هواجس شمشون واوجاعه .

وانتصف الليل او كاد عندما عاد الشاب فوجد شمشون في انتظاره عند طرف الحديقة المطل على المعمل . وكان الليل دافئاً وصافياً . والقمر يتهادى بين النجوم . فحيا الشاب شمشون تحية كلها شوق وعطف وفرح . واقتاده الى مقعد قريب حيث جلس واياه مطوقاً عنقه بذراعيه وسانداً رأسه على كتفه . ثم خاطبه هكذا : اما تراني سمنت منذ الصباح يا شمشون ؟

ـ حقاً يا بني . انك الان غيرك في الصباح .

– خير الدواء ان تهتدي الى باعث الداء فتتلافاه . وبمعونتك قد اهتديت الى بواعث ادوائي . فهنئني يا شمشون .

– الحمد لله يا بني .

شمشون ، يا ابت شمشون . اذا انت اصطنعت خنجراً ثم بعته مني عالماً انني ساقتل به رجلاً ما ، وقتلت به ذلك الرجل ، افلا تكون شريكي في القتل ؟

ـ من غير شك يا بني .

اذن كنت على صواب في ما فعلت .

ـ وماذا فعلت يا بني ؟ اتعني انك قتلت احداً ؟

وبغتة ارتج القصر ، واهتزت الارض ، وعصف الجو بدوي كانه الزلزال . واذا بالافق فوق الضفة المقابلة يشتعل ويموج بالنار ، والانفجار يتلو الانفجار ، واللهيب والدخان يصعدان في الفضاء . فما كان من شمشون الا ان خر ساجداً في الحال واخذ يصلي وكأنه المحموم يهذي : « ربي والهي . المعمل المعمل . يا للخراب . المعمل . يا للخسارة . ربي والهي . لنهرب . اهرب من الشظايا . المعمل يا بني . »

لكن الشاب اخذه بكلتا يديه ثم لفه بذراعيه ومن بعد ان هدأ روعه قال له : « ايليق بنا يا ابت ان نطبخ للناس ما نأبى ان نذوقه ؟ كيف ترجو ان تبتاع بالسم الزعاف شهداً شهياً ؟ لقد انهرق السم فما احلاها خسارة .

قال ذلك ووثب الى باب القصر فلصق عليه الورقة التي تناولها من الشيخ في الصباح . ثم عاد الى شمشون فاخذه وانحدر به الى اسفل الربوة وهناك ركبا الزورق الكهربائي وانطلقا نحو منبع النهر . ومن غير ان يلتفت الى الوراء رفع الشاب عينيه الى السماء وقال :

« اقتبل يا ربي قرباني » . فزكى شمشون صلاة مولاه بقوله « امين » واضاف في قلبه : « ترى اينا المجنون ؟ »

وانبلج الصبح عن انقاض المعمل الشهير والنار ما تزال تلهو ببقاياها . وعن زورق صغير يجري حثيثاً نحو ارض محجوبة الا عن التائهين .

ميخائيل نعيمه

المتجردة

بقلم يوسف غصوب



من ورق الورد ومن طيبه ... ومن ضياء جسمك العاري
على شذور التبر اضجعته ... قبلة الوان وانوار
مستسلما في غبطة لرؤى ... بيض بافق الحلم ابكار
في هالة شقراء من شعره ... هفافة بالنور معطار
ألقى بها في راحة طفلة ... وزانها غنجاً بازهار
اندى من الروض وافيائه ... في يقظة الفجر بنوار
تشيع في اظلاله شهوة ... مشوبة الجهر باسرار
اكوابه من خمرة اترعت ... وختمت منه بازرار
حمر على عاج به شفف ... من شدة اللألاء موّار
كورها الحب لاغراضه ... كأنما خطت ببركار
وفي مطاوي الكشح مثوى الهوى ... نطقه السحر بزنار
نسيجه من بعض اغرائه ... ووشيه من بعض أسرار
غرثى المنى من فوق مخضله ... هلكى فراشات على نار
اشقت زكي المسك انفاسه ... من حسد والنسم الساري
لم يطلع الصبح على مثله ... منحدراً من راحة الباري
يظل والاحداق يحدجنه ... مبتسما للنظر الفاري
ما من حياء في تجرده ... في الحسن منجاة من العار

يوسف غصوب

في قراطيس يوسف غصوب مجموعة تضم بضع عشرة قصيدة من الشعر الجيد، الجديد بجماع معنى الكلمة، حتى انها لتكاد توهم الجدة ايضا في منظوم الشاعر نفسه. واحدى تلك القصائد المصنوعة على غرار الالطاف المصغرة التي يبالغ فن الشرق في العناية بها، هذه « المتجردة » يتاح « للاديب » جلوة محاسنها الفريدة.

اخال ان صاحبنا اختار لمجموعته هذا الاسم: « غزل » وارجوان لا يحول عنه. فاعجب، بعد « القفص المهجور والعوسجة الملتهبة » لهذه البساطة السعيدة: في « غزل » نوازع الظمأ والشوق والحنين التي لا يفتأ شعر غصوب يبين عنها، مهما تعددت الصور، كأنما يصدر عن منابع قصية، اصيلة في طبع الشاعر.

هذه « المتجردة » حقيقة ان تغني عن لوحة مصور عبقري. يروى ان المصور ديجا كان يلهو عن فنه بقرض الشعر احيانا، وانه كان يعاني في ذلك نصباً شديدا، لكنه خلف مقطوعات لا بأس بها. فذات يوم، وقد اعياه نظم قصيدة هم بها، التفت نحو صديقه الشاعر مالارمه وقال محتجا: « ماذا؟ فانا لست تعوزني الافكار ؟. » فاجابه الشاعر متلطفا: « اجل، يا صديقي. لكن الشعر لا يصنع من افكار، انما يصنع من الفاظ. »

ومن هذه المادة المتكاملة صفاء وسلامة، وحسن جرس وبلاغة دلالة، صنع يوسف غصوب مجموعته « غزل ». ولا نغالي اذا قلنا انها، بهذا القياس، ولا سيما من هذه الناحية، طريفة حتى في شعر الشاعر، فليست توهم الجدة ايهاما.

عمر فاخوري

الاحساس بالطبيعة في التصوير الفرنسي

بقلم ج . لاسين

من مواضيع الدروس الكلاسيكية المنقولة في فرنسا منشأ الاحساس بالطبيعة في الادب الفرنسي ، وهذا الاحساس يرد، على الاجمال، الى روسو وبرناردان دي سان بيير في القرن الثامن عشر ويعزى تفتحه الى شاتوبريان والى اولى بوادر الرومانتزم تحت تأثير غالب لبعض الاداب الاجنبية . ولا يقل هذا الموضوع شأنا في ميدان الفن عنه في ميدان الادب . فبيان ما في الطبيعة وصورتها الروحية او ما يحيط به النظر منها قائمان في مصنفات الفن الفرنسي منذ وجوده ، فالفن الفرنسي عرف منذ القرن السابع عشر —في العهد الكلاسيكي الذهبي — ازدهاراً عظيما .

وبديهي ان يتقدم الفن الادب بمقدار ، ما دام الفن يتكىء بالذات على النظر وعلى بيان الحقائق المباشر بخلاف الادب الذي هو قبل كل شيء تقدير تفكيري . غير ان هذه الظاهرة يكثر الشعور بها او يقل بحسب اختلاف المدارس ، وانه لمن الندر ما توافر لبلد ، كما توافر لفرنسا، مثل هذا الارتباط المدهش بين تاريخ اللوحة الريفية وتاريخ التصوير على الاجمال .

نجد بعض الاحساس بالطبيعة في مصنفات المصورين البدئيين من جميع المدارس القريبة العهد بالبيان المباشر ، كالبدئيين الفلمنك او الطليان وارباب المصغرات الفرنسيين الذين كانوا يرسمون ما يقع لاعينهم من المناظر الطبيعية اطاراً لما يضعون من التصاوير . فقد خلف لنا « فوكه » والمزينون في القرنين الخامس عشر والسادس عشر لوحات نفيسة عن الارياف الفرنسية والحياة القروية . فمصنفات البدئيين تمتاز بالاعراب البسيط عما يقع لعيني الفني . ثم تطور الفن فتكونت المدارس الكبرى على الصورة الروحية من جهة وعلى الصنيع التزييني من جهة أخرى . وهذه الكيفية الاخيرة القائمة على قاعدة التناسب والاوضاع الكلاسيكية هي اساس التصوير في عهد النهضة الايطالية . وفي معظم المصنفات التزيينية يقع النظر على ما ينفتح للطبيعة وللواقعية كالباب والنافذة المفتوحة ، ولكن ذلك صار لا يقع الا في النادر القليل . ولم يعط لوحات ريفية حقيقية تكونت في الزمان والمكان الا التصوير الفلمنكي وارباب المشربون في روحهم محبة الواقعية . .

ولكني احب ان احصر موضوعي في ما كان التصوير الذي أدرك تطوراً حقيقياً وأفضى الى نتيجة على قواعد وقياسات ، اي في المدرسة الفرنسية التي تأخرت عن سائر المدارس الاوربية بدليل انها لم تبدأ الا في عهدنا الكلاسيكي ، القرن السابع عشر .

ففي القرن السادس عشر كان لنا مدرسة تصويرية لا اكثر ولا اقل . وفي القرن السابع عشر بدأت مدرستنا ، تحت التأثير الايطالي ، تستوحي الفن التزييني والقواعد القديمة والتركيب الميثولوجي . فهذا الفن الذي اعطى احسن ثماره في غير فرنسا ، اعطى في هذه الاخيرة ثماراً مثلها ومنها اولى لوحات «بوسان» كرعاة اركاديا» او «الهام الشاعر»، ولو لم يكن « بوسان » نسيج وحده في نقل المناظر الريفية لكان هذا الفن أفرغ كل ما عنده وخمد . ففي لوحات « بوسان » يدق الموضوع شيئا فشيئاً حتى يستحيل الى نوع من التصور يكاد لا يرى بالعين المجردة ، وهذا التصور الدقيق ليس سوى ذريعة لمناظر واسعة رحبة من الارياف الرومانية . فبوسان عبقري فريد مارس اروع الاساليب واجاد أحسن من اي كان اعتناق سنن اجمل المصنفات الكلاسيكية ، فهو بوالو التصوير وراسينه في آن واحد .



وقد اربى على كتاب عصره في ادراك حدود هذا الفن ، وبقي طوال النصف الثاني من حياته المجيدة

يطوي الكلاسيكية على الواقعية فنقاها من كل صنعة ومن التفصح الايطالي الفخم مهتديا الى بساطة أقرب الى القديم والى الحديث معا . ثم ادخل هذه الكلاسيكية في الطبيعة خالعا عليها فتاء وطراوة وواقعية الى الفن الفرنسي المعاصر وأعطت المدرسة الفرنسية وحدتها طوال ثلاثة قرون ، فبوسان يتأمل الطبيعة في عظمتها ويعبر نوعا عن روح اللوحة الريفية .

كان « كورو » اذا وقف امام لوحة « ارض الميعاد » يهتف : هذه هي الطبيعة ، فحتى بوسان كانت اللوحة الريفية تصنع في المحترف بمقتضى دروس او اساليب مهيأة . اما بوسان فكان يذهب الى قلب الطبيعة فيعمل رسومه على مثال المصور المعاصر فلا يكتفي بان يجمع لها نماذج من الاوراق والجذوع والقشور بل يتجاوز ذلك الى تدوين التأثير الذي تحدثه هذه الاشجار والاوراق بحسب الانوار والظلال . ومن دراسة هذه الرسوم ننفذ الى صفاء عبقريته وهي بخلاف ما يظن على الغالب من البداهة والحسية والفوران . فبوسان كان يدرس الارياف الرومانية بروح من الواقعية الحادة بعيداً عن اي سعي وراء المفتن من الخطوط ، فهو مفتتح تلك الحلقة من المصورين الذين ما برحوا منذ القرن السابع عشر الى يومنا هذا يرسمون اجمل الصور عن مناظر الغرب . وفي الوقت نفسه على وجه التقريب كان ثانيه كاود جيله الملقب باللوريني يواصل تجارب كلته . فبوسان كان يتوصل الى ان يخلق من جديد تركيباً للمنظر الريفي اصدق من الواقع . اما كاود اللوريني ، المبشر الحقيقي بالعهد الانطباعي ، فكان يسعى لان يدرك من هذا المنظر جميع دقائقه والوان الزمن على الخصوص . وقد كان هو ايضا من العاملين في الصنيع التزييني وممن يستهويهم العمل في الهواء الطلق . وقد جاء في ترجمته انه كان يصرف نهاراته في معاينة مختلف مفاعيل النور في مختلف ساعات النهار ، فيعاين الآفاق ، ومفاعيل السماء ، والبحر والشمس في اثناء شروقها ومغيبها . كان بوسان يحلل المنظر الريفي وينسقه ، فسكب فيه اللوريني النور وغرائب التصورات غير المتناهية . وكبوسان كان يأخذ رسوماً لملاحظاته ودروسه وكثيراً ما كان يرسم رأساً في سهول تيفولي او فراسكاتي صور الجبال والاودية والمغاور والشلالات .

وهذه التصاوير تبين تطوراً عظيما بالقياس الى جميع المدارس الاخرى . فمنذ القرن السابع عشر ظهر الاتجاهان الخطيران اللذان اغنيا فن التصوير الريفي الفرنسي متعارضين او ممتزجين . فمن جهة الاتجاه الذي يريد الاهتداء الى التعبير عن الطبيعة في تآلف مختلف الاجزاء وصهر الاوقات المتتابعة في بوتقة واحدة . فالاول يعطينا رسوم لوحات توقظ الذاكرة وتحرك احاسيس النفس ، والاخر على النقيض من ذلك يرينا تجلي الطبيعة بوجه عام . ومن المصورين الريفيين الفرنسيين من جرى مع الاتجاه الاول آخذاً اخذ بوسان متبعا امثولته الكلاسيكية الكبرى ، ومنهم من استسلم الى رؤى اللوريني . على انهم جميعاً خدموا في هيكل الطبيعة وقد اعطى مجموعهم صورة للطبيعة لا تضاهى بغناها وعظمتها .



وهذان الاتجاهان لزما مطلع القرن الثامن عشر . ولكن الاصطلاح والروح الكلاسيكي والميثولوجيا جرت في المجرى الحديث . وأصبح « واتو » لا يكتفي بالارياف الرومانية اطاراً له بل يتجاوزها الى « ايل دي فرانس » . وما عتم هذا الاطار ان ظهر على الموضوع شأنه في لوحات بوسان . اما الطريقة الايطالية فما لبثت ان عادت مع فراغونار وهوبر روبر ، السائحين المتلمسين المفتن من الاثار وسائر الوان الطبيعة . وقد اتسم القرن الثامن عشر بالجهد المستمر لاجراء الفن التصويري مع روح العصر . فاذا بحث المصورون عن بقايا القديم فليس لارجاع قواعده بل للاعراب عن جواذبه وتأثيره الحاضر في المراتع الخضراء . وهكذا انجلى الفن التصويري وغني بالف لون ، وما اوشك العصر ان ينتهي حتى كانت رسوم فراغونار كأنها من ريشة مونه .

وهذا التطور السريع مني بتوقف فجائي في زمن الثورة ، فقد عمد دافيد الى تأسيس مدرسته الخطيرة على القواعد اليونانية والرومانية . ومع ان دافيد مصور عظيم الا ان روح المقاييس يقتل الفطرة فيه فقد سلك كلاسيكية غامضة لا تمت الى الانسانية بسبب خيل اليه معها انه يستعيد تقاليد بوسان في حين انه ظهر عليها بدليل ان الجهود التي بذلها بوسان خلال السنوات الثلاثين الاخيرة من عمره لم ترم الى سوى صهر الكلاسيكية في الانسانية . وهذا المسلك التحكمي الذي ينتسب الى ذهنية نابوليون الجسيمة والى جهد الامبراطورية صوب ضربة قاسية على فن التصوير الفرنسي : على ان حسن الطالع شاء ان يستمر التصوير الصحيح في بعض صغار الاساتذة المغمورين والمحتقرين ، وبدورة غريبة تجددت تقاليد التصوير في مستهل الرومانتزم . كان اللوريني وواتو اثرا تأثيراً حاسماً في خارج فرنسا ايضاً . وفي جملة البلدان التي تأثرت بهما انكلترا التي ظهر فيها ، آخر القرن الثامن عشر ، مصورون ريفيون على جانب عظيم من الجسارة بينهم كونستبل ، المبشر بمدرسة بربيزون ، وتورنر ، مستهل العهد الانطباعي ، فهذه المدرسة المجيدة التي اثرت في فرنسا تأثيراً حاسما في عهد الرومانتزم نقلها المصور الانكليزي الفرنسي بوننتن الى ديلاكروا رسالة كان لها من الخطر في الفن ما كان لرسالة اوسيان وبيرن في الادب . وان يكن ديلاكروا بقي ضعيف التأثر بالمنظر الريفي ، فهو من عشاق الابحاث التقنية ، وفي تصويره الخلائق والمناظر يعتمد الواقعية التي تغري المصورين الريفيين ، ومن الوجهة التقنية يقوم صلة وصل بين تورنر ومونه ، فهذا المصور الحماسي العظيم ، هذا المفكر القوي النفس جدد الوان التصوير الفرنسي .

ومن هذا القبيل احدث في فن التصوير الريفي تأثيراً قد يكون اكبر من التأثير الذي احدثه كورو ، فهذا الاخير وان يكن مصوراً ريفياً عظيما الا ان طريقته الكلاسيكية الشعرية تبدو كأنها صادرة عن القرن الثامن عشر اكثر منها عن فجر الازمنة الجديدة . فلوحة « عرائس صور تفونتين » تنتسب الى لوحة « الابحار الى سيتير » واللوحات الريفية الرومانية هي نتيجة السياحات في ايطاليا . على ان كورو يعتمد نوعا من الفن الريفي انشأته مدرسة بربيزون والانطباعيون فيما بعد . ومدرسة بربيزون هذه جديرة بان لا تفصل عن الانطباعية ، فميله وروسو ودوبيني ليسوا دون مونه وبيكسو ورينوار . وما كان الشطر الثاني من القرن التاسع عشر الا عاقبة صالحة تكلل بها تاريخ اللوحة الريفية الفرنسية . وما يزال هؤلاء المصورون كنز مدنيتنا كما ان رونقهم ما يزال ينير العالم ، ففيهم يستمر تألق تلك الحركة الفريدة التي ما برحت منذ ثلاثة قرون تقيم فرنسا مقام الوطن لفن التصوير الريفي .

يتسم بعض الشعوب بفن الحفر كالطليان مثلا (ومن العجب ان المناظر الطبيعية الايطالية لم تجد مصورين لها في سوى الفرنسيين .) وبعضها يغلب عليه الانطلاق في التجارب النفسية ويلمس ذلك في الفن الاسباني . وبعضها يتجاذبه الافراط في التصورات الوهمية ، ويرى ذلك في الفن الالماني ، اما المصورون الفرنسيون فعلى النقيض من ذلك ، فقد لزموا الاتصال بالواقع . وهم وان كانوا اقل طموحا من الاخرين الا انهم وصلوا الى ابعد مما وصل اليه الاخرون ، فكل شيء كائن في الطبيعة فهي الحياة نفسها واشكالها لا تعد ولا تحصى ، هي الابد بالقياس الى الانسان ، وهي دائمة التحول ، لا تتوقف ، ومواردها لا تقع في نطاق الحصر بينما موارد المخيلة او التصورات الوهمية محصورة في عوامل ثقافية لا تتجاوزها .



لقد بقيت فرنسا طوال ثلاثة قرون تعطي ليس من ارضها فحسب بل من الارض المجاورة لها صورة للواقع بجميع وجوهه هي اشعر من جميع الاحلام وأدهش من جميع التخيلات . فالامثولة التي يعطيها الفرنسيون هي الامتزاج بالارض والانسكاب في الطبيعة ، فالمصورون الفرنسيون هم مصورون انسانيون مارسوا اسمى الفضائل التي يحق لفرنسا من اجلها ان تكون الاولى .

ج . لاسين

الظمآن

بقلم راجي الراعي



في ذلك المساء كنت في طريق عائداً الى بيتي لاطرح على عتبته اعياء اليوم وانا امسح العرق الذي كان يتفصد به جبيني والتقط حجارة البؤس وارجم بها الدنيا، فشعرت بيد ناعمة تمتد الى جبيني ونظرت فاذا بشبح في عينيه الف شعاع انتصب امامي وبادرني قائلا : انت من البائسين ولكن خفف عنك فالحياة التي ترجها تدعوك الليلة الى جلسة شراب تقيمها لك ولامثالك في القصر القائم على تلك الرابية التي تراها فاذهب واشرب وتمتع . فسألته : ومن تكون ايها الشبح المشع؟ فاجاب : انا الرحمة . وما هي الا طرفة عين حتى حمله النسيم وتوارى عني . . فقلت لنفسي : هل لمثلي ان يتمتع بشيء في هذه الدنيا ؟ هي ولا شك مهزلة جديدة فلاذهب الى ذلك القصر واشهد فصولها . وواصلت سيري الى حيث القيت باحمالي على عتبة البيت وخرجت والليل يشتملني ، اهبط الوادي واتسلق الجبل حتى بلغت القصر الذي اشار اليه الشبح ودخلته فاذا هو يعج بالخلائق يتدافعون بالمناكب ليستمعوا الى الكلمات التي كانت تعيدها عليهم امرأة توسطت المكان ، طويلة القامة بدينة ، ورحت اشق الصفوف المتراصة حتى دنوت من تلك الامرأة فسمعتها تقول : انا الحياة . . اعرف انكم البائسون من ابنائي الذين طالما عبست في وجوههم ، ولذا رأيت ان اجمعكم منذ اليوم مرة في العام لاعرض لكم اثمن ما لدي من الكؤوس واسكب لكم منها فتبتل شفاهكم الجافة ببعض ما حرمتموه من دناني . . انا الحياة . . ولي كؤوس وافخرها واجملها واعزها ثلاث . .

ورفعت بيدها الكأس الاولى وقالت : هذه هي الكأس الصفراء كأس الثروة من شربها اتسع امامه مدى العيش واقام القصور الناطحة السحاب واقتنى الارض الفسيحة الرحاب ونال ما يشتهيه من الطيبات ، وتحدى الاقدار ، ورفل بالدمقس والحرير وبسط الموائد المثقلة بما لذ وطاب من الطعام والشراب . . ورمت الحضور بقبضة من الدنانير فهجموا يلتقطونها ، وصبت لهم خمرة الثروة ، فشربوا جميعهم اما انا فلم اشرب . .

ثم رفعت الكأس الثانية وقالت : هذه كأس الكؤوس ، كأس المرأة يحفها الحب والجمال ، من شربها فرشت له الجنات تجري من تحتها الانهار وتدفقت عليه قبل الحسان وحملته اجنحة القلب الى آفاق الغبطة والنعيم ، وتنشق الرياحين ، وسجع له الحمام وتنقل بين الزهر والورد ، وذاق الشهد . .

واطلقت في تلك القاعات فتاة غضة بضة سمراء الوجه دعجاء العينين رشيقة القد يفوح منها عبير الحسن وتشع عيناها بالاغراء والفتنة فتخاطفت وجنتيها وتنافست في ثغرها القبلات . . وصبت خمرة المرأة فشرب الجميع . . اما انا فلم اشرب .

ثم رفعت الكأس الثالثة وقالت : هذه هي الكأس الحمراء ، كأس المجد ، كأس انيبال ويوليوس قيصر والاسكندر ونابوليون، من شربها دقت له الطبول وخفقت في سمائه الرايات وسارت في ركابه الجيوش واكتسح البلدان واخضع الشعوب وتمثل بخمرة النصر ونصبت له التماثيل والعروش . .

ودارت على الحضور باكاليل من الغار فزينوا بها رؤوسهم . . وصبت خمرة المجد فشرب الجميع اما انا فلم اشرب . .

وكنا عشرة الاف من بائسي (هيجو) تغص بنا مئة قاعة في ذلك القصر ، وكان الجميع من حولي يهللون للحياة ويترنحون بخمرها ويثنون على كرمها وحنانها اذ جادت عليهم، وهم المحرومون، بساعة من ساعات نعيمها . .

وكانت الحياة تطرب لبنيها وهم يطربون ولكن ساءها ان لا اكون من دعاتها المهللين وسكاراها الطروبين ، وراحت تسأل عني وقد جرحت كبرياءها ، وما لبثت ان اقبلت علي والعيون تحدق فينا والقوم يتهامسون وسألتني من انت ؟ فاجبتها : انا الظمأ . . . الظمأ القامح ، الظمأ كله ، فقالت : ولم لم تشرب من كؤوسي التي ادرتها على رفاقك ؟ فقلت لها : لانها لا ترويني . فقالت : وكيف ذلك ؟ فقلت : انت تجهلين نفسك او تعرفينها ولكنك تخدعين فان تلك الكؤوس التي عرضتها وباهيت بها وسكبت فيها ايتها المرأة الضالة او المضللة كؤوس وهمية خداعة مزيفة لا تجدي فتيلا ولا تروي غليلا . انك لا تستطيعين ان تعطي اكثر مما عندك ، وما عندك ليس بالشيء الكثير ولا هو بالترياق لعليل مثلي فلو اعطيتني كل ما لديك من الذهب ونفحتني بكل ما لديك من النساء وصور الحب والجمال وزينت رأسي بكل ما لديك من اكاليل الغار ووهبتني الدنيا باسرها لما اكتفيت ولا هدأت نفسي . . وما الفائدة من الكأس اذا لم ترو شاربها ؟ انا هو الانسان ، انا هو الظمأ المستديم وليس في كؤوسك ما يرويني ، انا لسان من اللهيب يندلع وليس في وسعك ان تقطعيه ، انا نار ليس في يدك رمادها . . ان بينك وبين نفسي منذ تعرف احدنا الى الآخر لفلوات شاسعات كتب لي ان اظل مكتوياً بضرامها حتى يفتح لي الله شرفة من دارك على الآخرة حيث آمل ان ارى وجه الله واذوب فيه وارتوي . . انا الظمأ ، الظمأ وانت لا ترويني . . انا الانسان الكبير وانت الحياة الصغيرة وما هو ذهبك وما هي نساؤك وما هو مجدك اذا جاشت الجائشات في صدري واطلقت خيالي . . انا ظمآن . . ظمآن الى الله وانت كافرة، ظمآن الى الحق وانت البطل ، ظمآن الى الوفاء وانت خؤونة ، ظمآن الى الخلود وفي كأسك غائلة الموت . . انا ظمآن خلقت ظمأنا من قوم ظامئين واجتاز صحاريك ظامئاً وساموت ولساني جاف وشفتاي المرتعشتان تلمسان الغيب وتلتهبان شوقاً وحنيناً الى الماء الذي هو الماء والخمرة التي هي الخمرة . . ومن اجل ذلك انا واجم كئيب ، وبائس يائس فلا ترأفي بي ايتها الحياة ان رأفتك لاتجديني ولا تفخري بكؤوسك بعد اليوم ولا تسكبيها فهي تؤلمني ولا تكفيني . .

راجي الراعي

بنجامن كونستان

بقلم الياس ابو شبكة

نحن في مفتتح القرن التاسع عشر . اوربا في حمّى النار ، والادب معقود اللواء لرؤوس الحراب ، لا يتكلم الا المدفع ولا ينشد الا شفار السيوف . قصائد العصر : مارنغو ، اوسترلتز ، يينيا ، ايلو ، فريدلان ، اكموهل ، وغرام . وشعراؤه المأذون لهم بالكلام : بونابرت ، تاليران ، فوشه ، ماسينا ، سان سير ، ناي ، دافو . وعرائسه : مدام تاليان ، جوزيفين ، كارولين ، بولين ، هورتانس .

الشعوب في غمرة من الرؤى العجيبة تصرفها ملاحم المجد عن سماع النشودة الحرية ، فهي تعطي فلذ اكبادها بدون حساب مصغية الى الابطال ينظمون الياذة العصر .

ومبادىء الثورة في جميع النفوس ولكنها هاجعة لا تستيقظ الا في ارواح خمسة اوستة من رجال القلم ظلوا واقفين في العالم الساجد !

في جهة : العبقرية العسكرية ومجد فرنسا والعظمة البشرية بكل ما اوتيت من الابهة والقوة والجمال ، وفي جهة : مبادىء الثورة ورأس حكمتها — الحرية !

في جهة نابوليون بونابرت ، وفي جهة بنجامن كونستان ، رب السيف ورب القلم !

وانها لمأثرة جليلة ، ان يصدر السيد جان بيلين Jean Baelen مؤلفه عن بنجامن كونستان في وقت تتكالب فيه قوى الشر على قوى الخير ، قوى الظلام على قوى النور ، قوى العبودية على قوى الحرية . ولعمري ان الكلام عن رجل سلخ من حياته اربعين سنة في الدفاع عن الحرية وحقوق الفكر متعصباً لأنقى شريعة ادبية عرفها العالم ، فلم يتملق لواتر ولم يكفر بموتور . ان الكلام عن مثل هذا الرجل لكلام عن مبدأ وعن حضارة اذ بنجامن كونستان لقّن عصره امثولة في السلوك السياسي وفي كرامة الشخصية البشرية . وككل امرىء يأبى على الرأي ان يكون ندراً أي مفروض ، ويفهم بالحرية انتصار الفرد على السلطة التي تريد ان تحكم بشريعة الطغيان وعلى الجماعات التي تطالب بحق استعباد الاقلية للاكثرية ، عرف بنجامن كونستان الاحقاد والضغائن التي تواجه السياسة حين يمارسها المرء بروح حرّ في معزل عن قواعد اللباقات الخبيثة . فقد رأيناه في يد المعارضة خلال

بنجامن كونستان

جميع الانظمة التي تعاقبت على فرنسا ، من الثورة الى لوي فيليب . وان يكن دافع عن الملكية في شهر اذار ١٨١٥ ، كما اطرى نابوليون بعد ان جرد عليه سيف النقمة ، ثم قبل من لوي فيليب مئتي الف فرنك كانت ديناً عليه للصيرفي الشهير لافيت — فلبوادر التقلب هذه ، اذا كان ثمة تقلب ، اسباب عاطفية واخرى مادية وسياسية لها صلة وثيقة بالمبادىء الحرة التي يدين بها . ولكن هذه الاسباب لم تبدل شيئاً من شخصيته الروحية ولم تمس صلابة مبادئه . فقد صان في نفسه ذلك الهيكل المنيع الذي بناه لمثله الاعلى ، فلم يتملق ولم يداهن ، ولم يبذل عقيدته الحرة المستقلة لكائن من كان ، ولم ينحدر في حياته المضطربة الى المبتذل المألوف في الدهماء .

ويقيننا ان بنجمان كونستان لم يقبل التعاون مع نابوليون في الرابع عشر من نيسان ١٨١٥ بعد ان كان لشهر خلا اهاب بالامة الى الدفاع عن العرش الملكي ، الا لان نابوليون عاد الى المبادىء الديموقراطية التي طاف اوربا باسمها . ولكي يعلن نابوليون هذه العودة اسند وزارة الداخلية الى كارنو ودعا بنجمان كونستان الى مجلس الشورى . وهكذا اعترف بسيادة الرأي العام ومبادىء الحرية التي يمثلها هذان المواطنان . ولقد كان من مصلحة فرنسا ان يقبل بنجمان كونستان دعوة نابوليون ، فوجوده في السلطة ضمان لمبادىء الحرية وشكيمة للعاهل .

واليكم فقرة من الحديث الذي افضى به نابوليون الى بنجمان كونستان عندما استدعاه ليوقفه على السياسة التي وطن العزم على سلوكها . قال : لقد بقيت الامة اثنتي عشرة سنة مستريحة من كل هياج سياسي ، ومرت عليها اليوم سنة وهي مستريحة من الحرب . وهذه الراحة المزدوجة اشعرتها بالحاجة الى النشاط ، فهي تريد منبراً للكلام ومجالس . ولكن لا اخالك تجهل ان الاقلية هي التي ابدت هذه الارادة ، لا الشعب ، فالشعب لا يريد سواي ، فانا لست كما يزعم بعضهم ، امبراطور الجنود فحسب بل امبراطور القرويين ايضاً ، امبراطور العامة ، امبراطور فرنسا . ولا اخالك تجهل اية عاطفة تربط الشعب بي فليس لي الا ان احول نظري ليغير الشعب على الاريستوقراطيين ويفتك بهم على بكرة ابيهم ! . ولكني لا اريد ان اكون ملكاً على مجازر . فاذا كان ثمة وسائل دستورية احكم بموجبها فخير والا . . . »

وأردف نابوليون قائلا : هات رأيك يا مسيو كونستان . أزني بافكارك . اتريد انتخابات حرة ؟ ومناقشات عامة ؟ ووزراء مسؤولين ؟ أتريد الحرية ؟ فانا اريد كل ذلك . . . انا من الشعب ، فاذا كان الشعب يريد الحرية فانا مدين له بها . لم تحدثني النفس يوماً بان ارهق الشعب لاجل لذتي ، فقد كان لي مقاصد كبرى قضى عليها القدر ولم يبق لي سوى هم واحد وهو ان انهض بفرنسا واعطيها الحكومة التي تلائمها . وقل بأني لست أمقت الحرية فأنا ابنها شربت من لبنها ولكني أقصيتها عندما حاولت الوقوف في طريقي . »

وهكذا انتصر القلم على السيف ! . وتحقق قول الفيلسوف تميستيوس للامبراطور جوفينوس : « ان يكن رجال الحرب رفعوك الى العرش فعلى الفلاسفة ان يعلموك كيف تحكم . » فجميع الحضارات متصلة القديم بالحديث في

السيد جان بيلين

صاحب كتاب « بنجمان كونستان » ، ومدير الغرفة السياسية في المندوبية الفرنسية الحرة .

تعشقها روح الحرية واحترامها شخصية الانسان . ولا يستطيع انقاذ الحضارة الا المثقفون !

وقد يكون بنجمان كونستان اعدل المفكرين في عصره واغناهم فهماً لجوهر الحرية . فالحرية في مذهبه لا تعود الى الانسان عن طريق الحق الالهي ، كما هي في مذهب روسو ، بل تعود اليه عن طريق الجهد الروحي . وهو لا يجهل ان الحرية خطر على الجماعة المستأثرة المجردة من القلب وانها تؤدي الى الخرق وتجر الى طغيان جديد ، فوقف جهوده ككاتب اجتماعي على البحث عن حل وسط بين فحش السلطة المطلقة وفحش الجمهور . وقد يكون موريس باريس اخذ عن بنجمان كونستان قوله عن روسو « ان روسو يجهل مناهج العلم . فهو لا يلاحظ بل يتخيل ، لذلك رأينا الفوضى تنبثق عن مبادىء روسو . »

ومجمل القول ان بنجمان كونستان لم يشجب مبادىء الثورة التي رحب بها منذ مدرجها بل عمل على تفسيرها وشرحها لتنقلب من مبادىء فلسفة وقضائية وادارية الى مبادىء انسانية .

في السنة ١٨٣٠ اجتازت جنازة بنجمان كونستان شوارع باريس ، وكانت المنازل مجللة بالسواد وجماهير الطلاب تجسم الموكب بوفودها المتتابعة . وقد قال السيد جان بيلين ان الرومانتزم كان هنالك يطالب بجثمان بنجمان كونستان . . . ولا نوالع في ان الطلاب والجماهير الباريسية كانت تشيع في بنجمان كونستان رجلاً يختلف عن الذي بقي اربعين سنة يدافع عن الحرية وحقوق الفكر ، فواضع قصة « ادولف » كان قد محا في قلوب الشباب مبدع مذهب الحرية والكاتب السياسي . على ان محبة الحرية هي التي اوحت « ادولف » الى بنجمان كونستان . ولو لم يكتب بنجمان كونستان غير « ادولف » لكفاه ذلك طريقاً الى الخلود . فهذه القصة التي كتبت بلغة « مانون ليسكو » لا تقل عن هذه الاخيرة صدقاً في نوازع النفس واحاسيسها . فليس في الحقائق الصارمة الموجعة ما لم يطبعه الكاتب في هذه القصة بطابع لا يمحى فهي ملأى بالنصائح والعبر للذين يعشقون ويتألمون .

وليس ادولف سوى بنجمان في اضطراباته وقلقه ، في ضعفه وطموحه ، في تمسكه بلذاذات الحياة وفي تفلته منها . نراه يطمح الى السيادة ليتكلم فيسمع ويخرج الى عالم النور ما في خياله من المرامي الجليلة ، ويطمح الى الحب لينجو من سأم الحياة وضجرها ، واذ تأتيه السيادة ويأتيه الحب يستيقظ واذا السيادة اوهام والحب قبض الريح . وانه لمشهد موجع مقنط سعي المرء للتحرر من آلام لم تقدر وحب لم يفهم ! . .

وقد قال بنجمان كونستان في « ادولف » : « ويل للرجل الذي لا يؤمن في اولى ساعات حبه ، بان هذا الحب سيكون ابدياً ! ويل للذي يعتقد ان الاقدار ستسلخه من بين ذراعي المرأة التي يحبها »

وترى حبيبته تعرض عن العالم من تلقاء نفسها لتوفر السعادة للرجل الذي اختاره قلبها وقد خيل اليها ان ما في قلبها من الحرارة لن ينطفي ، وان القلب الذي استوثقت منه لن ينكر عظمة التضحية التي بذلتها . لقد افتتحت هذه المسكينة حب رجل فكانت فخورة بهذا الفتح مؤمنة بجماله غير مدركة ان الحظ قد ينقلب يوماً . اما الناس الذين يشيرون اليها اشارة الغيرة والحسد فلا يقوون على زعزعة ايمانها . فقد أقسمت وستبر بقسمها . فالقسم في الحب لا يقل قدسية عن القسم في الدين . فقد أقسمت على المضي في حبها الى آخر الطريق . وماذا تعنيها جواذب الحياة المفروشة حولها ، فقد احتقرت كل شيء . واغمضت عينيها الا عن جاذب واحد . عن كنز واحد هو الكنز الذي اختاره قلبها . لقد انزوت في حبها كأنها في حصن حصين ناظرة الى احلام شبابها الذهبية تتناثر في الابعاد . وكلما رأت بيتاً سعيداً تنغلق ابوابه شعرت في اعماق نفسها بجمال الحياة التي اصطفتها . وقابلت بين ما يحببه الناس من اوهام الاعياد الكاذبة والعيد الدائم الذي يحببه لها الحب .

وكلما رأت امرأة حزنت عليها لانها لا تذوق مثل سعادتها . ويجيء يوم تمتلىء فيه كأس التضحية فتلتفت فلا ترى الا الجحود ونكران الجميل .

ايكون صحيحاً ان الحب يغذى من القلق والغصص ، وان عذاب الغيرة يهبه الحياة والنمو وان اوراقه تذبل في جو الوفاء الهني . ؟ فالحب اذاً اقسى عذاب وامر فشل ومحبة الذات اولى الفضائل واعدل الواجبات .

ورب متسائل : الى اي مغزى يرمي بنجمان كونستان في « ادولف » ؟ لقد خلص نقاده الكثيرون الى ان لا مغزى له وان هذه القصة اذا امتازت بشيء . فبصدق لهجتها . بيد ان مسيو بيلين يعترض على هذا النقص في الادراك فيقول ان نتيجة القصة لا تنكر ادولف وحده بل تنكر ايضا المجتمع الخبيث الذي يحاول دس السم في عاطفة لا يجبر على احترامها كعاطفة مشروعة . ويورد مسيو بيلين تأييداً لمغزى « ادولف » عبارة وردت في مقدمة وضعت لهذه القصة ولم تنشر وهي « ان الوفاء في الحب قوة كالمعتقد الديني او كالهيام بالحرية . »

يا جمال الحب من يستطيع ان يصورك . ويا جمال الحرية من يستطيع ان ينكرك !

الياس ابو شبكة

التفكير اجتماعياً

وقف الرأي والهوى ينظـران	بين صدق النهى وكذب الاماني
والبرايا لديهما شيعتـان	للهوى جرأة وللرأي حكمٌ
طال ظلم الانسان للانسان	يظلم الناس بعضهم منذ كانوا

◆

رحم الله ولي الدين ، فقد استيقظت هذه الابيات في ذاكرتي وانا اطالع ما كتبه السيد انـدره فيكتور في كراسه الصغير : « التفكير اجتماعياً » وقدمه الى ناشئة الشرق ، فتيانه وفتياته . وكأني بتلك الفصول المشبعة الصادرة عن قلب وعن ضمير ، شرحٌ مستفيض لهذه اللحظة التي استغرقها الشاعر . وهل الصفحات التي املاها وجدان الكاتب الا كلمة الفصل في ذلك الصراع الموجع بين الرأي والهوى . بين رأي الحكيم وهوى الجماعة ، بين محبة النفس ومحبة الغريب ؟ وكأننا بالكاتب اراد ان يحل المعضل بهذه الكلمات الثـلاث : « احبوا بعضكم بعضاً » فاخذ من هذه العبارة الانجيلية انجيلا اجتماعياً خاطب فيه جميع الطبقات بلغة برئت من بهرجة الصنعة ، لا دعوى فيها ولا غرور شأن كل صنيع يريد ان يفيد لا ان يبهر . ويقيننا ان الكاتب ما خاطب الناشئة في هذا البلد الا تقيدا بجحود اللياقات ، فالناشئة اقل ادعاء بالكمال من مكتملي العمر ... وهدف الكاتب ان يعلم لا ان يجبن . وماذا قال الكاتب لفتيان هذا البلد وفتياته ؟ لقد قال لهم : تعودوا ان تفكروا بالغير ... فالتفكير اجتماعياً هو التفكير الانساني السليم ... لا ينبغي للانسان ان يفكر لمصلحة نفسه فحسب، بل لمصلحة الاخرين ايضاً ... يجب ان نعترف للاخرين بما لهم من الحقوق . فالشرعة الاجتماعية التي للامة يجب ان تكون مماثلة للشرعة الاجتماعية التي للفرد . التفكير اجتماعيا هو الشعور بحالة الالوف من العمال الذين يستثمرهم ارباب الاعمال ... التفكير اجتماعياً هو الاعتراف بان التاجر الكبير الذي يخزن المواد الحيوية فيمنع الشعب من العيش والعمل انما هو عنصر رديء فاسد خطر على المجتمع .

ولم يكتف المؤلف بايراد هذه الافكار او هذه التعاليم بل اوضحها وشرحها في ثلاثين صفحة ، هي خير مثال للتفكير الانساني الشامل ، وخير دليل ان كراساً صغيراً افيد احياناً وامتن من كتاب ضخم . فقد اعطى الكاتب في صفحاته القليلة هذه صورة حية عن الرأفة التي تشرف القلب البشري وتجمله ، واوصى كل فرد بان يعمل على تهذيب نفسه وتكميلها سعياً لتهذيب المجتمع وتكميله ، فذكرنا بقول مترلنك : « كلما ازدادت نفوسنا جمالاً وتحسن خلقنا وقعنا على نفوس تزداد جمالاً وتحسناً .. » فاذا طابت اخلاقنا طابت اخلاق من حولنا ، فبين جميع النفوس تعاون حتم ، ولا تستطيع نفس ان تجمل وتتحسن ما لم تجمل وتتحسن جميع النفوس الاخرى .

على ان الذي يحول بيننا وبين التسلل الى الحقائق ويقنع الارواح بستارة كذابة هو الجشع ، هو الاستئثار بالخيرات ، هو الكبرياء لا الكبر ، هو الجهل . وهذه كلها تحفر هوة عميقة بين الانسان والانسان وتباعد بين القلب والقلب .

للهوى جرأة وللرأي حكم   والبرايا لديهما شيعتان

شيعة الراي المظلوم وشيعة الهوى الظالم ، شيعة الحكيم وشيعة الجاهل ، شيعة الخادم وشيعة المخدوم ، شيعة الموتور وشيعة الواتر .

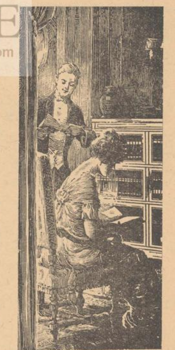


هوة عميقة بين الانسان والانسان حفرتها مزاعم الطبقات، مزاعم الاحزاب ، وهذه المزاعم يجب نفيها منذ اليوم كيلا تصبح عالة على الناشئة عندما تكتمل ... وكيف تنفى هذه المزاعم؟

بدخول الانسان الى نفسه واعتناقه شرعة المحبة التي لا خلاص بدونها. يجب عليك ايتها الناشئة وانتم ايها المكتملون ان لا تشيحوا بوجوهكم عمن ليس من طبقتكم ومن مقامكم ، وان تتصلوا بالحياة ، باعماق الحياة . . . يجب عليكم ان تقفوا امام الفقير الذي يمد اليكم يده لا لتضعوا فيها الصدقة فحسب بل لتفهموا سبب شقائه ايضاً • يجب عليكم ان تقفوا امام الصانع الصغير العاكف على عمله وان تحدثوه وتنفذوا الى نفسه فقد تجدون فيها كنوزاً من الذكاء والاخلاص والتضحية . يجب عليكم ان تعطفوا على جميع الذين ليسوا من محيطكم وان لا تفتحوا نفوسكم للاحتقار والازدراء والنميمة • ويجب عليكم . . يجب عليكم ان لا تكتفوا بمظاهر العطف بل ان تضيفوا اليها رغبتكم في الاسعاف والتعاون، فالعمل المشترك يوحد النفوس مقدار ما تفرقها الاثرة ومحبة الذات • اذا شئتم ان تجابهوا ذلك المعضل الاجتماعي الخطير بكل ما فيه من العقبات فاجعلوا المحبة في نفوسكم ، فبالمحبة تذللون كل عقبة وتصلون • اخرجوا الاثرة من نفوسكم لتدخلوا الى نفوس الاخرين . واذا شئتم ان تبنوا وطناً قائم الدعائم على اسس من السياسة السليمة فتعاونوا بارادة حسنة ، بمحبة ورأفة، اما المال فليكن وسيلة لكم لا هدفاً، فالجشع في محبة المال شر شرور المجتمع . وهل الغاية من خيرات الارض الا توفير الرفاه والطمأنينة لجميع الناس ؟ فاحتقار هذه الخيرات سبب الخصام بين الاخ واخيه ، بين المستثمِر والمستثمَر ، بين الطبقات والطبقات ، بين الشعوب والشعوب •

ويعطف الكاتب على جميع معضلات العصر ، وفي طليعتها معضلة الاجور، فالاجرة هي الوسيلة الوحيدة التي يأمن بها العامل والمستخدم غوائل الدهر . يقولون : « لكل انتاج قليل اجرة قليلة ، فالعامل الذي يشتغل بوهن وخور لا يستحق الا الاجرة التي تتناسب وعمله . » ولكن الذين يرون هذا الرأي ينسون انه اذا كان انتاج المأجور ضعيفاً فلأن هذا المأجور كون تكويناً رديئاً ، فالتبعة اذاً لا تقع بكاملها عليه بل على الدولة او على رب العمل الذي كان من واجبه ان يعينه على تكوينه نفسه • وربما كان السبب في ضعف الانتاج ان المأجور لم يراقب مراقبة حسنة او ان المشرفين عليه يهملون امره كما هو اهمل امر نفسه فالتبعة اذاً تقع على رب العمل . وربما كان السبب ايضاً ان المأجور ليس من القوة بحيث يستطيع الكد والدأب، وهذا الضعف في صحته ناشيء عن رداءة قوته ورداءة قوته ناشئة عن رداءة اجرته •

ويقولون ايضاً : « ان العامل والمستخدم في الشرق يكتفيان بالقليل فلماذا يعطيان اجرة لا تتفق والحالة التي الفاها ، ولماذا يخلق لها حاجات جديدة ؟ . . فعلى هذا القول يجب الرد بان مجتمعاً يستبقي الطبقات العاملة في مستوى من الحياة لا يسمح لها بأكثر من اتقاء الموت جوعاً انما هو مجتمع وحشي عديم الشفقة . فمن حق العامل ان يعيش من عمله في بحبوحة ووفرة وان يطمح الى رفع مستواه بممارسة هذا العمل باستقامة وشرف . ان العامل في نظر بعض ارباب الاعمال ليس سوى آلة بشرية او هو دون الالة قيمة فالالة تصلح اذا ساءت او تجدد اما الانسان فلا يعبأ به لا قليلا ولا كثيرا فالادوات البشرية كثيرة • • فمن واجب المجتمع ان يعمل على مداواة هذه العلل ، ولكنه لن يصل الى هذه النتيجة الا اذا كان مشرب القلب بروح العدل والا اذا عرف ان يقدم محبة القريب على محبة المال .



قال علي بن ابي طالب : « ان الناس رجلان ، متبع شرعة ومبتدع بدعة » وكأننا بالسيد اندره فيكتورلم يبتدع ماجاء في كراسه الصغير من المبادىء الخطيرة فهي في كل قلب ينبض بالحب وفي كل عقل يعي الحق ويؤمن بشرعة العدل • على ان اتباع الكاتب شرعة الحب والعدل في زمن تخلى فيه الحق للظلم والحب للبغضاء وتكاد شرعة الانسان للانسان « شرعة الناس للناس » تنقلب فيه الى ضدها، ارتفع به الى مستوى الرجل الثاني، فهو متبع شرعة ومبتدع بدعة في آن واحد •

فكتاب مسيو اندره فيكتور صورة حية عن فرنسا الانسانية التي لا تحول • ولكان بودي ان يكون كتاب فرض لكل من يخدم في هيكل المحبة والعدل .

لقد اوصى هذا الكتاب الناشئة بان تفكر تفكيرا اجتماعياً وعلمها سنن هذا التفكير على انه مصدر سعادتنا جميعا ، وعلمها ان تكون لنفسها افكارا صحيحة تبنيها على آداب المنطق السليم فتوجهها هذه الافكار الى نعيم اجتماعي لا فقراء فيه ولا اشقياء ، يسوده الحب والمساواة ويخيم عليه الكرم والوفاء . واذا قال قائل ان المساواة من زخارف الكلام لانها تنافي بعض شرائع الطبيعة فيجب الرد عليه بان الحب اذا خلص وصفا قادر ان يرتفع بالجنس البشري على بعض هذه الشرائع .

ا . ا . ش

ظـلال

ستطفأ المصابيح

بقلم الياس خليل زخريا

انا لو كنت ليلا، مثلك يا ليل، لكسرت هذه المصابيح المبثوثة، التي تفتق قميصي، وترقعه باصابعها الخشنة. يأتي واحدنا لينام غفوة في النشيش، والسكينة البعيدة، والغيبة البعيدة، فتتثاءب المصابيح في جو الارض، وتنتصب السقوف والجدران، وتتحرك الضوضاء، فتشعر كأن العتمة الناعمة التي تفتش عنها بينهم تنتظرك بخوف، تحت النافذة ... تهم ... ولا تدخل ...

تمد اليها يدك من الطاقة لتحملها وتكدسها في بيتك كما يكدس النوتي شباكه قبل الابحار، فيغمزها المصباح، بوقاحة وتبقى جاثمة على الدرب في العراء ...

انا لو كنت ليلا، مثلك يا ليل، لقطعت من فتوق نفسي خيوط المصابيح.

ومن يرتدي الثياب المرقعة غير الجبناء ؟؟؟

انا لو كنت مثلك شبحاً ضخماً لاطفأت النجوم العالية برفة ردائي.

ولزررت عب الشمس على وجه القمر.

ولنمت وحدي في سرير الارض، كلما تنهدت، ارتفع سقف السماء وهبط.

اراك تقهقه عالياً ...

...... قهقه ... عافاك الله ...

قل لي بحق رجليك، وعكاكيزك الطويلة، اين تتخبأ في النهار ؟؟ وراء اي صخر وفي لحف اي جبل ؟؟؟

لو لم تكن مجنوناً لما حلمت بالفجر ليمزق قميصك الاسود ثم يقذفك برجليه في قاع البحر ...

لو لم تكن مجنوناً لما كنت ملعباً لبنات آوى، ومسرحاً للكلاب ...

كلما اطل رأسك من شفق المغيب ارسلت العواء تخوف به النجوم ...

اضرب بعكازك الاعمى، زجاج المصابيح، وحناجر الكلاب ورؤوس بنات آوى ...

اضرب ...

ونم عندي في الجنينة على بلاط الحوض.

ولا تخف على كنوزك ما دامت في كل زاوية من زواياك زنجية سكرى تعد عناقيدك السوداء حبة حبة.

هش بعصاك.

وانزل ... وحذاريك : حذاريك جنيتي السوداء الهابطة من كهوف الاودية العالية.

لا ...

لن ادعك تفلت.

ابق معي يا ليل —

ساعقد منطقة جبتك بحديد شباكي

وستطفأ المصابيح

وتدخل الجنية السوداء.

وتنام انت، تحت النافذة ناطوراً لبيتي ...

الياس خليل زخريا

في سبيل انشاء امة

لغة الاطفال

بقلم منير النصولي

اللغة ، كما تعلم ، همزة الوصل بين الأفراد والشعوب ، وهي تتركب من كلمات ان هي الا رموز تتناول الاشياء الحسية والمجردة ، بواسطتها يتبلور في اذهاننا العالم الخارجي وندرك الاحساسات الداخلية .

يقول « جيمس » اننا نرى الاشياء في الاشياء التي تستهوينا منها ، بنسبة العوامل المغرية ، عوامل تختلف عند الافراد حسب مزاجهم وميولهم .

فالطفل الذي يتبدل في تطوراته يمر في اطوار مختلفة تجعل من ادراكه الاشياء ادراكاً يتلاءم مع نفسيته ، فاذا به يقتبس اللغة تدريجاً الى ان يصل الى ما نحن عليه .

فبينما يكون الطفل في سريره يتلاعب بصوته ، فيسر لسماع نغماته ، وتطرب امه « لمناغاته » ينتظر العالم تكويناً صحيحاً في سبيل انشاء امة بشغف وشوق . فان عجز صغيرنا عن التحكم بنبرات خاصة فهو مع الزمن ، وعندما يأخذ النمو حداً معيناً ، يقوى على ترديد نغمة اعجبته Echolarie عن طريق التقليد الصدفي ، فيطرب لها ويطرب للسلطة التي حاز عليها . فهو من الوجهة الفزيولوجية في بدء الامر عالمي في التصويت ، يظهر مخارج الحروف العربية وان كان فرنسياً ، هذا ما يصعب عليه فيما بعد عندما ينطق بلغة ابائه واجداده ، هنالك عادات عضلية تتكون فتأخذ في الرسوخ مع الزمن حتى انه يخيل اليك انها من عوامل الوراثة .

فهو يبتدع لغة في اول امره عن طريق التجارب ، ليرضي غرائزه وما صراخه احياناً الا اعلان صريح عن طلبه الحليب ، وقد بدأت تفهمه تلك الام الحاذقة ، فهي تبادر لاعطائه ثديها كلما سمعت اشارة الخطر ، ولكن علمي النفس وحفظ الصحة قضتا بوضع حد لتذمر الصغار ، فهيئتا لتربيتهم عادات حسنة .

ان عملية اقتباس اللغة تتطلب وقتاً طويلا كما يقوى النضج الفزيولوجي والفكري ، متى تبدأ هذه العملية ؟ . ان أحسن قصة يمكننا ان نستشهد بها للجواب على ما تقدم هي قصة تلك المرضعة الالزاسية مع طفل وهو في الشهر الثالث من عمره (١)

وهنالك علاقة كبيرة بين عمل الفكرة واللغة التي يخاطبوننا بها

— كل نني لآخدك عتتش

— خدي البوبي يا قرقوره

— بتشرب مبوو ؟

كل طفل منذ ولادته يتعلم ثلاث لغات ، عليه ان يفهم لغة قومه التي يجب ان يتكلمها يوماً ، وعليه ان يفهم اللغة التي يبتدعها له اهله ، واللغة التي يصنعها هو كصلة وصل .

تدبر أيها الصغير ، واختر مايروق لك من بين هذه السفاسف العديدة التي يقدمها لك من يحبك من صميم قلبه .

ها هو بسكال ينظر بانتباه وسكون الى هندسة الفسيفساء في ردهة بيته . . .

وها هو الطفل ذو الميول الخاصة ينشأ بين افراد عائلة فنانين ، فلا يهتم الا باسماء السيارات وانواعها .

لقد برهنت Mlle Descœudres بان ابن الوسط الغني يكون في اول الامر اغنى بلغته من ابن البيئة الفقيرة .

ان اكتشاف معنى الكلمات يكون قفزة قفزة ، فالولد الذي يفتكر في عالم الخيال ، يرجع الينا بغتة بواسطة الكلمات التي ننطقها .

هكذا يتكون الفكر واللغة بين اخذ ورد فيمر الطفل في دور التعداد ثم الوصف الى ان يدرك الصلات المنطقية .

على ان الاسئلة العديدة التي يطرحها علينا الصغير تدل في غالب الاحيان اما على رغبته في التعرف الى اسماء الاشخاص او على مشكلة منطقية وقف الطفل منها عاجزاً ، فليكن جوابنا جواباً محكماً . استمع لتلك الابنة الصغيرة وهي تسألك :

— امياه هذا النهر مالحة ؟

— لا طبعاً ، فكري قليلا . . . اذ لا يمكن لمياه هذا النهر ان تكون مالحة طالما مياه نبعه عذبة والا كيف نشرب منه ؟

فاذا بالابنة تفكر قليلا وتقول مستغربة :

— ولكن البحر مالح وما الانهار الا ينابيعه .

ان ما يدهشنا في اكثر الاحيان هو شدة نزعات الطفل ، شدة تنم عن فكر متوقد ، يمر هو ايضاً بازمة نمو وانما الفترات التي يمر فيها الانسان ، ويكون فيها صريحاً في عواطفه بقدر صراحته في الفترة التي يبدأ فيها بان يشعر ، لهي قليلة ، ولذا فان اهمية بعض اعمال الاطفال تفوتنا تماماً ، نحن الكبار .

منير النصولي

(١) راجع العدد الاول من الادب « زهرة تتفتح »

من حدائق الحضارة العربية

الفيلسوف الساحر ـ الطبيب المتنبي

بقلم جبور عبد النور
استاذ الفلسفة في الكلية العلمانية

الدنيا الاجتماعية والادبية والعلمية التي حفلت بها حضارة العرب في ابان نموها، واوج ازدهارها، كانت دنيا زاخرة بالجديد المبتكر، والغريب المبتدع.

وكان الفكر قد دق في بحثه، وتشعب في تخصصه، وبلغ العرب في قرن وبعض قرن لطافة في التعبير الفكري لا يرى لها مثيل الا في امم نادرة، حتى اصبح الفارسي، وهو غذي المذاهب المشهورة، والتركي والارمني وحفيد السلالات السامية، وهم رضيعو الثقافة اليونانية؛ يطلقون لغاتهم الهرمة العيية، ويحملون بالسنتهم تقويماً لتنقاد لهم الفكر الشاردة، والاخيلة اللطيفة.

واذا بهذه اللغة العجيبة، التي نبتت كالكمـأة في الصحراء، حيث لا علم ولا فن، وحيث كادت تتحجر الصور الشعرية في تعابير وتشابيه خاصة محدودة، تتفلت من قيودها، بعد عهد الدعوة والفتوح وتصطبغ بصبغة جديدة مشرقة، وتثبت لزعماء الفكر ان نبتة الصحراء وعبقر، لا تقل حيوية عن غرسة الارخبيل والاولمب.

كاد يكون زمن النضج «صندوق دنيا» فيه من كل لون وجنس، وملة ونحلة، جاؤوا من مشرق الارض ومغربها، ينهلون من منابع العلم ويستهدون بمناراته، ويملأون صدورهم حكمة ومعرفة وادباً وجمالا.

ما عرفت العصور الغابرة فاتحاً متبدياً، انتقل من الطور القبلي الى عهد الغزو والفتح، الا ضاق صدره بحضارة الامم المغلوبة ومعالم فنها، ورفعة علمها، فاعمل السيف في الرقاب، والنار في الآثار القديمة، وانكر على اصحاب الفكر فضلهم، وحاول ان تتسلط قوة يوم على مدنية اجيال، وبطش فاتح جافي الطباع، على رفاهية متحضر انيق.

غير ان العربي ما احرق وما هدم، وما استبد وما قهر، وما رنحت بسطة النفوذ عطفيه، وما ازدهته الاقاليم التي دانت له. لم يؤله القوة، بل حولها الى اداة توفيق وتمدين وتحضير، فكان من اول ثمارها، انه رقى عقله، وهذب عيشه، وشذب عاداته، وصقل طباعه. ثم كان من نعم تلك القوة الفتية انها ساعدت الشعوب التي تدافعت في رقعة نفوذها، والاجيال التي تداولتها الحياة فيها، على التكاتف في خدمة الرسالة العربية. واستأثرت بالتراث القديم، من نتاج الاغريق والفرس والهنود، تؤمن له تربة آمنة، وجواً مطمئناً، وصدوراً واعية، وعقولا خصبة مولدة. ومن هذه الحديقة الوسيعة التي وجد فيها كل قوم، وكل دين، مكاناً يزرع فيه غرسه، نقتطف ثمرتين.

الفيلسوف الساحر

لما ورد ابو نصر الفارابي على سيف الدولة .. اخذ يتكلم مع العلماء في المجلس في كل فن ، فلم يزل كلامه يعلو ، وكلامهم يسفل حتى صمت الكل ، وبقي يتكلم وحده . ثم اخذوا يكتبون ما يقوله . فصرفهم سيف الدولة ، وخلا به . فقال له : هل لك ان تأكل ؟ فقال : لا . فقال : فهل لك ان تشرب ؟ فقال : لا . فقال : فهل تسمع ؟ فقال : نعم . فامر سيف الدولة باحضار القيان . فحضر كل ماهر في هذه الصناعة بانواع الملاهي ، فلم يحرك احد منهم آلته الا وعابه ابو نصر الفارابي وقال : اخطأت . فقال سيف الدولة : وهل تحسن في هذه الصنعة شيئاً ؟ فقال : نعم . ثم أخرج من وسطه خريطة ففتحها ، واخرج منها عيداناً وركبها ، ثم لعب بها ، فضحك منها كل من كان في المجلس . ثم فكها وركبها تركيباً آخر وضرب بها فبكى كل من كان في المجلس . ثم فكها وغير تركيبها وضرب بها ضرباً آخر ، فنام كل من في المجلس حتى البواب ، فتركهم نياما وخرج[1] .

الطبيب المتنبي

قيل ان ثابت بن قرة اجتاز يوماً ماضياً الى دار الخليفة ، فسمع صياحاً وعويلا ، فقال : مات القصاب الذي كان في هذا الدكان ؟ فقالوا : اي والله يا سيدنا ! البارحة فجأة . فقال : ما مات ، خذوا بنا اليه . فعدل الناس ، وحملوه الى دار القصاب . فتقدم الى النساء بالامساك عن اللطم والصياح ، وامرهن بان يعملن مزورة ، واوماً الى بعض غلمانه بان يضرب القصاب على كعبه بالعصا . وجعل يده في مجسه ، وما زال ذلك يضرب كعبه الى ان قال : حسبك . واستدعى قدحاً واخرج من شكة في كمه دواء ، فدافه في القدح بقليل من ماء ، وفتح فم القصاب وسقاه اياه فاساغه ، ووقعت الصيحة والزعقة في الدار والشارع بان الطبيب قد احيى الميت . فتقدم ثابت بغلق الباب وفتح القصاب عينيه ، واطعمه مزورة ، واجلسه ، وقعد عنده ساعة ، فاذا اصحاب الخليفة قد جاؤوه يدعونه ، فخرج معهم والدنيا قد انقلبت والعامة حوله يتعادون الى ان دخل دار الخلافة . ولما مثل بين يدي الخليفة قال له : يا ثابت ، ما هذه المسيحية التي بلغتنا عنك ؟ قال : يا مولاي كنت اجتاز على هذا القصاب والحظه يشرح الكبد ، ويطرح عليها الملح ويأكلها . فكنت استقذر فعله اولا ، ثم قدرت ان سكتة ستلحقه ، فصرت اراعيه ، واذ علمت عاقبته انصرفت وركبت للسكتة دواء استصحبه معي في كل يوم ، فلما اجتزت اليوم وسمعت الصياح والعويل علمت ان السكتة قد لحقته . فدخلت اليه ولم اجد له نبضاً . فضربت كعبه الى ان عادت حركة نبضه ، وسقيته الدواء ، وفي غد يخرج من بيته .[2]

... وقد نعود الى هذه الحديقة في نزهة ثانية

جبور عبد النور

---

(١) ملخصة عن ابن خلكان : وفيات الاعيان ، طبعة الميمنية ج ٢ ص ٧٧ مصر ١٣١٠ هـ
(٢) ملخصة عن ابن القفطي : كتاب اخبار العلماء ص ٨٤ طبعة مصر

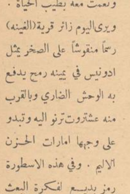
اساطير لبنانية

بقلم شفيق طبارة

في البدء عبد الانسان الارض ، ولما امحل الزرع رفع بصره الى السماء ، فتخيل فيها قوى تمنع الخير . فاستغاث بالاجرام ، فعبد الشمس والقمر وغيرهما من الكواكب ، وكانت كلها في نظره آلهة . ثم رأى ان تلك المعبودات لم ترد عنه عوادي الزوابع والسيول والرياح فقدس الظواهر الطبيعية وصلى لها ، وسبح بحمدها ، وقدم باسمها القرابين ، ومثلها باشكال الانسان والحيوان ، واقام لها الهياكل ونسج حولها الاساطير .



والاسطورة هي رواية خيالية تتجلى فيها الحياة العقلية لما غبر من العصور ، وهي فن من فنون الادب يطرب خيالها المسامع ، وتخبر عن عقائد الاقدمين ما يلذ الباحثين . والفينيقيون كالامم القديمة كانت لهم اساطير كتب لها الخلود وانتظمت في سلك الاساطير العالمية . ومما نسب اليهم اسطورة ادونيس ومن حديثها ان ادونيس الاآله الفتى الجميل قد خرج متصيداً في غابات لبنان ، فرأته عشتروت ربة الحب والجمال ففتنها حسنه وشغفت بها حباً ، فشاع خبر هذا الحب حتى بلغ الاآله (مارس) وكان يعشق عشتروت ، فوقعت الغيرة في قلبه وصمم على الفتك بادونيس ، فتمثل له في صورة خنزير بري وضربه بانيابه ضربة هوى على اثرها ادونيس ميتاً عند مغارة (افقا) وشربت دماءه الارض فانبتت زهرة (شقائق النعمان) ونمت حتى امتلأت بها المروج . وشاهدت عشتروت هذه الفاجعة فانطلقت تندب حبيبها وتبكيه حتى استيقظت الطبيعة وعبست السماء وانتفضت الارض واضطربت مياه نهر ابراهيم وتدفقت غاضبة بلون احمر الى عباب اليم وشعر كبير الالهة (جوبيتر) بما دهى عشتروت فرثى لحالها واعاد الحياة الى ادونيس فقرّت به عين عشتروت وتحول حزنها فرحاً وغمها سروراً



ونعمت معه بطيب الحياة . ويرى اليوم زائر قرية (الغينه) رسماً منقوشاً على الصخر يمثل ادونيس في يمينه رمح يدفع به الوحش الضاري وبالقرب منه عشتروت ترنو اليه وتبدو على وجهها امارات الحزن الاليم . وفي هذه الاسطورة رمز بديع لفكرة البعث وعودة الخصب الى الارض بعد الجفاف واحتفل الاقدمون بذكرى ادونيس وأقاموا له المهرجان فتغنت بقصته الاجيال وكتب اسمه في الخالدين .

ومن اساطير اللبنانيين اسطورة طريفة تصور « شباط » رجلا من اهل الظرف والدعابة مع تقلب في الرأي وكره شديد للعجائز . وهذه الاسطورة ذات علاقة بمعتقد الفينيقين الذين ألهوا قوى الطبيعة وحسبوا الشتاء رمز الموت وحسبانهم الربيع رمز الحياة . وهناك من

ينسبها الى ايام برد العجوز السبعة المعروفة عند العرب وتسمى المستقرضات ، زاعمين ان عجوزاً درديساً تدثرت بكل ثقيل لتأمين غدر البرد الشديد ، فأضمر شباط لها الكراهة والبغضاء ، ولما صار اليه الحكم في الطبيعة سلّط على الارض ريحاً صرصراً عاتية أثارت البر والبحر وأوشكت ان تقضي على كل ذي حياة . اما العجوز فراحت تضرم ناراً وتستدفئ. الى ان بلغ الشهر عقده الثالث فتنفست الصعداء، وهتفت قائلة : « مضى شباط وفي قفاه مخباط » وكأنما اثر في شباط مقال العجوز ، فنوى ان يغتالها، فانطلق من فوره الى اذار وطلب اليه ان يقرضه مدداً ثلاثة ايام شديدة البرد وقال له : « يا اذار يا ابن عمي ! ثلاثة ايام منك واربعة مني لاجعل العجوز توقد دولابها، وتضع رأسها بين ركبابها » فأسعفه اذار ومضى شباط يصب على رأس العجوز الارزاء طيلة ايام المستقرضات السبع ولما استنفدت البائسة ما عندها من الحطب هرعت الى الدولاب وطرحته في المدفأ ، واذ نفد كل ما عندها من الوقود ماتت لساعتها من الزمهرير ، وفاز شباط الخبيث وكتب له على العجائز النصر المبين . ولهذا نرى اكثر الطاعنين من الجنسين يهابون شباط .

وهناك اسطورة قديمة تناقلها الناس جيلاً بعد جيل حتى انتهت الينا وتمثل اعتقاد بعض الاقدمين في الشمس والقمر فقد كانوا يعتقدون ان هذين الكوكبين لا ينالهما كسوف او خسوف الا اذا وقعا فريسة لشرير من العمالقة . وكان غيرهم يعتقد ان حوتاً هائلا ينقض على الشمس او القمر ليبتلعهما ، ودأبت العامة عند الخسوف او الكسوف على قرع التنك بشدة ، ليسمع الحوت فيخاف ويولي الادبار . ومما يروى في ذلك ان الملك هلاكو دعا النصير الطوسي ليحدثه بمعلومات الغيب ، فقال له الطوسي : ان القمر سيخسف في الليلة الخامسة . فقال له الملك : ان صدقت اطلقتك وأكرمتك والا قتلتك . وأمر بحبسه الى تلك الليلة فخسف القمر واتفق ان هلاكو كان نائماً فلم يجسر احد على ايقاظه فقال الطوسي : ان لم ير القمر بعينه أصبحت مقتولا ففكر هنيهة ثم قال: دقوا الطاسات . فدقوا حتى انتبه هلاكو ورأى القمر مخسوفاً فخلى سبيل الطوسي وأجازه وبقيت هذه العادة بعده .

ومن المعلوم ان اللبنانيين القدماء قدعبدوا الشمس واستمرت تلك العبادة امداً طويلا وأثرها ما برح ظاهراً الى اليوم . ويتضح ذلك من ان عادة الاولاد ان يرموا بالاسنان الحليبية الى الشمس لئلا تنبت عوجاء، ويتوجهون بالدعاء. قائلين « يا شمس يا شموسه خذي سن الحمار واعطينا سن الغزال » .

ومن المعروف ان للقطط عند عوام اللبنانيين منزلة خاصة ، فهم يتجنبون قتلها ويعتقدون انها ذات سبعة ارواح . وقد اخذنا هذه العقيدة عن الفراعنة ايام كان لبنان خاضعاً لسلطانهم ، وحافظنا عليها على مرور الاجيال . وفي التاريخ ان الفراعنة كانوا يعبدون اله الحب : بدنه بدن انسان ورأسه راس قطة ، ويزعمون ان الارواح والجان تتلبس اجسام هذه القطط وتظهر باشكالها، وكانت قوانينهم تقضي بالقتل على من يقتل احداها . ولقد أفاض الرحالة « هيرودوت » في وصف تقديس قدماء المصريين للقطط وذكر ان من عادتهم ان يحلق شعر لحيته علامة الحزن عليها . واقتدى العرب بجيرانهم في ايام الجاهلية فاتخذوا من الاصنام صنما براس قطة وعبدوه .

ويعتقد بان القطة لا تقع الا على اطرافها .. وفي ذلك قالت العامة بيننا « فلان مثل البسين كيفما رميته بيجي واقف » و « فلان مثل القطط بسبعة ارواح » مما جرى مجرى الامثال . ومن اساطير الاولين ان القطط وجدت من عطسة اسد ... قال الجاحظ : زعم بعض المفسرين والرواة ان اهل سفينة نوح اضر بهم الفأر فعطس الاسد عطسة فرمى بزوج من السنانير » فكان السنور أشبه شيء بالاسد . وقال كسبان : يحق ان يكون هذا السنور « آدم » السنانير .. وتلك السنورة « حواءها » ..

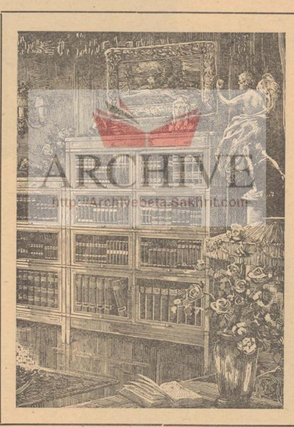
هذا عرض موجز من اساطير العوام في لبنان ، ولا شك ان الناظر في هذه الروايات الخيالية يجد الكثير مما يربطنا بالاوائل ويحيط اللثام عن تفكير اللبنانيين الاقدمين . واذا كان الادب صناعة فهذه الاساطير « مصنوعات » ..وطنية وثروة ادبية جديرة بان تكون « مواد اولية » لفن القصة . وهي لقدمها « تحف » نفيسة خليقة ان تحفظ وتعرض على الجمهور . وقد عنيت بطائفة منها جمعاً وترتيباً وتأويلا ، ليكون العلم بها علم رواية ودراية ، وذلك على نمط ما فعل اهل الغرب في اساطيرهم لا كما يري اكثر ادبائنا ساهين عما في طياتها من خيال وابداع .

شفيق طبارة

المكاتب في زمن الحرب

اصبحت المطالعة من اكثر وسائل السلوى شيوعاً في انكلترة . واسباب ذلك عديدة ، منها طول ساعات الفراغ التي يتمتع بها رجال الدفاع المدني الذين تم تدريبهم فأقاموا ينتظرون ساعة انتدابهم للعمل الجدي ، والاجازات الممنوحة للجنود مناوبة ، والسهرات الطويلة قرب المدافيء في البيوت اذ ينصرف العمال الى الكتب لقضاء الوقت بدلا من الذهاب الى دور السينما والمسارح كما كان شأنهم في الماضي .

ولا شك ان قلة الورق في ايام الحرب قللت عدد الكتب الجديدة المطبوعة كل سنة ، فاتجه الناس طبعاً الى المكاتب العامة حيث المجلد الواحد لا تنحصر فائدته في الشخص الذي ابتاعه ، بل يطالعه مئات من المترددين على المكتبة . وقد كتب المستر فرنسيس هاردنج احد معاوني الاطفائيين المقال التالي عن حالة المكاتب العامة الكبرى في البلاد البريطانية :



ان الذين لم يشهدوا منا حرباً قبل هذه ، واجهوا في ايلول ١٩٣٩ بداية عهد مضطرب شديد الخطر . فقد حسبنا ان الانخراط في الجيش او في قسم الدفاع المدني يعني انشغالا متواصلا بدون انقطاع ، على ان العامين والنصف الذين انقضيا علينا في هذه الحرب اثبتا لنا كم كنا على خطأ .

اجل ! ان بعض الغارات التي شنها العدو على بلادنا شغلت عمال البلاد اياماً متواصلة ، لكننا على الرغم من ذلك وجدنا اوقاتاً طويلة لا عمل فيها . وهذه الاوقات الفارغة صرفت عناية العمال الى المطالعة . فاذا اضطر المرء حيناً الى البقاء داخل الابنية بلا عمل وجد في الكتب منجاة له من السآمة .

على ان اوقات الفراغ لم تكن وحدها الحافزة على المطالعة . بل هنالك سبب آخر ذو شأن وهو ازدياد التفكير الذي احدثته في الادمغة الحرب الحاضرة نفسها . فالناس اليوم لا يأخذون كل شيء على علاته ، بل يريدون ان يعرفوا كيف وماذا ولماذا . ان كفاح الديمقراطيات ضد الفاشية اثار في الاذهان مسائل تهم كل المفكرين . والاتصال الوثيق غير المعهود قبلا بين افراد الناس انتج من المباحثات والمجادلات ما لم يكن لنا به عهد في زمن السلم . ولا مشاحة في ان السبيل الوحيدة لتغذية هذه الرغائب انما هي الكتب .

ثم ان بعض الكتب تشكل بطبيعتها الروائية وسيلة للتسلية بعد التعب ، شأن السينما والمسرح .

وامثلة من الكتب التي تعنى ببعض الشؤون العامة في الدول الاوربية والاميركية والاسيوية . ولا سيما الشؤون التي تشغل اليوم افكار العالم باجمعه . وكلما طلب من المكتبة كتاب غير موجود لديها عملت حالا على جلبه وعرضه .

وهذه الزيادات هي التي جعلت مكتبة « ايلنج سنترال » مثلا تضيف جناحاً جديداً الى بناياتها . وكل هذا يدل على اننا مع قيامنا فعلا بكفاح موت او حياة نجد وقتاً ومالا لاشباع رغباتنا الثقافية .

كان طالبو القراءة يكثرون في المكاتب العامة عادة ايام السبت بعد الظهر . اما اليوم فصارت قاعات المطالعة تعج بقاصديها كل ليلة ،

مكتبة سنت برايدز العامة

بعض العمال من شارع فليت ينتخبون كتباً ليطالعوها في فراغ آخر الاسبوع . وهذه المكتبة من المكاتب القديمة العهد ومركزها قريب من قلب لندن .

مكتبة منشستر العامة

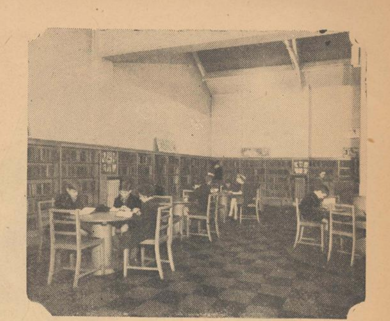
وهي واحدة من احدث المكاتب العامة واكملها في انكلترا . مركزها في قلب مدينة منشستر .

وقد قامت المكاتب حتى الان بتغذية الراغبين من كل النواحي ، مثال ذلك : لما دخلت روسيا الحرب صار كل انسان يهتم لمعرفة احوال الاتحاد السوفياتي واساليب الحكم فيه . فعنيت مكاتب عديدة بتسهيل منال الكتب التي تكفي هذه الرغبات . ومن هذه الخطة تفرعت خطط اخرى . فقد صارت المكاتب تقدم لوائح

وليس بعد ظهر السبت فقط . وهذه الجماهير مؤلفة من طبقات مختلفة متعددة . فرجال الطيران يطلبون الكتب الفنية ، ورجال الدفاع ضد الطيران يرغبون في الروايات الخيالية ، والجنود يبحثون عن الكتب المثيرة المهيجة للاعصاب . وفي كل ناحية من نواحي المكتبة تجد الطلاب يطوفون كالمشترين امام الباعة في المخازن .

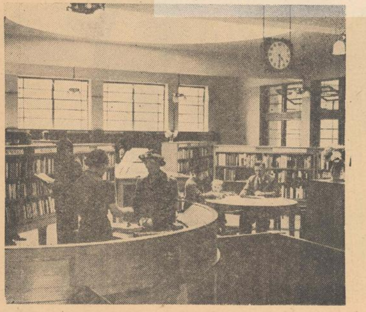
هذا الميل الذي نشأ في ايام الحرب لن يضمحل وقت السلم . فالرغبة في المطالعة اذا حلت في القلب فهي تعلق به ولا تزول . وهكذا تكون المكاتب العامة قائمة بعمل صالح لا ريب فيه .

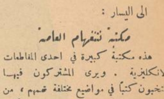
◆



الاولاد المستعيرون

تعتني المكاتب العامة في انكلترا بخدمة الاولاد اعتناءها بخدمة اهلهم . وهذه صورة بعض صغار المقترضين للكتب ينتخبون الروايات التي يحبونها في احدى مكاتب لندن العامة .





الى اليسار :

مكتبة نتنغهام العامة

هذه مكتبة كبيرة في احدى المقاطعات الانكليزية . ويرى المشتركون فيها ينتخبون كتباً في مواضيع مختلفة تهمهم ، من فلسفة الى تاريخ الى وصف رحلات واماكن وغيرها .

◆



نشرت بأذن من مالكتها الانسة ندى

النجوم

بقلم الدكتور حبيب ثابت

●

مراكبُ، الجوّ مراسيها … مجرة الافق شواطيها
تشردُ في الليل على نورها … احلامُنا وتلتقي فيها
مشاعلٌ في العمق وهاجةٌ … يضيئها الله ويطفيها
كأنها الاعمار في كفه … ما شاء يحييها ويفنيها

✲✲✲

لئالىء في الجو منثورة … تشع من بُعدِ اقاحيها
علقها الليلُ على اذنهِ … ليلا وباهى بتدلّيها
عرائس في الافق مرفوعة … طيب الليالي من دواليها
حمائم في الجو نوّاحة … تمنا على نوح قاريها
رسائل بيضاء منشورة … كف الغيوم السود تطويها
فيها رموز بين طياتها … محجبات عنا معانيها

✲✲✲

كوى، طريق الله ابوابها … مفتوحة في وجه باريها
تطل منها الحور عريانة … فتسكر الدنيا وما فيها
سهل من الانوار اغنامه … تصغي الى مزمار راعيها
ترعى الاماني الزهر في سهلها … وترتعي ليلا بواديها
غاباتها نور وانهارها … نور، ونور في روابيها

✲✲✲

عشنا بها في بعض ايامنا … اذ نورت دنيا الهوى فيها
نطير من نجم الى كوكب … ونجتني زهر امانيها

(من عشتروت)

حبيب ثابت

حيث التراب المسن

يلد الشباب

اذا عدل المؤرخون غداً في تمييز الشعوب التي استبسلت في هذا المعترك الهائل الذي يرجع فضل الغلبة فيه الى الفولاذ والحديد، فسيفردون للشعب اليوناني صفحة تكون نسيج وحدها في تاريخ هذه الحرب . فلأشهر خلت وقف الجندي اليوناني ليذود عن حياضه وليس لديه ما يجابه به عدوه المتفوق عدداً وعُدداً الا ايمانه بقدس قضيته وتراث اجداده ، وكأن اليونان فتحت قبورها واخرجت البطولة من عظام ملتيادس وليونيداس، ولم يزح اليونانيون الذين قاموا بواجبهم رافعي الجبين ودافعوا عن صعيدهم شبراً شبراً الا تحت وطأة العدد والعُدد .

وما اعظم التاريخ ثدياً لابنائه . . فلكل حجر في اليونان اسم مجيد ، وعلى كل شاطئ ذكرى عظيمة . وقد تمحّي عواصم وتنهار دول ولا يستطيع طاغوت مهما طغى ان يصهر ولو اسم بقعة من بقاع اليونان في أخرى . فهذا التراب المسن الذي التقت فيه الحكمة والبطولة مسجل على جبين التاريخ الى دهر الداهرين .

لقد تمحّي عواصم وتبقى اثينا وتضمحل دول وتبقى اليونان .

وبعد فالى القراء قطعة من البيان الراقي دبجتها يراعة الكاتب المستنير السيد ماريو مونيه باللغة الفرنسية ونشرتها « غازيت دي لوزان » في العاشر من كانون الثاني الفائت ، وفيها وصف رائع لمدينة اثينا واكربولها المشرف على معابر الابطال .

« ان يكن ثمة مدينة ، بعد باريس ، يرتد اليها في كل حين ارق ما فينا من الاحساس فهي اثينا ، عاصمة اليونان امّ الفنون والعلوم والآداب . وما كانت النكبة التي المّت بها الا لتزيد غيرتنا عليها وتنمي وفاءنا لها وتؤكد ما نحن مدينون به من الجميل لماضيها المجيد . فأثينا كانت في الواقع حاضرة العبقرية ، على حدّ ما قال الشاعر بندارس . واننا لمدينون لهذه المدينة الخالدة بأجمل ازهار يمكن الذكاء البشري ان يزدان بها : بتذوق العقل ، وتكريم الجمال ، ومحبة الفكر ، وغريزة البحث والاستقراء ، وعزة الحياة ، والاحترام المقدس لشرائع الوجدان .

« ولكن كيف نفكر في اثينا من غير ان نتخيلها من اعالي الاكربول ؟ فالاكربول هو في الواقع حصن تلك المدينة الازلية ، بل هو « مدينتها العليا » ، وعلى اقدامه كانت تمتد في الماضي الشوارع الضيقة المشتبكة في الحاضرة التي رأى فيها سقراط النور ، كما تمتد اليوم الجادات الفسيحة في اثينا الجديدة . وان مجد هذا النجد الصخري الذي آوى في الماضي ملوك اثينا الاول ، ثم اتخذ سوراً مقدساً لهيا كل الآلهة التي كانت تحرس المدينة وتصونها ليعدل في المعمور شهرة اعظم الممالك التي



عرفها العالم . وهذا النجد المكوّن من طود صخري مستطيـل وردي اللون مسطح على عرض فسحته المرتفعة ، منيع الا من جهتـه الغربية ، تنقض جدرانه الشاهقـة انقضاضاً عمودياً ويوحد ذهب الشمس ما عليها من الشقوق والنواتي . ويرتفع هـذا الصخر دفعة واحدة منعزلا في سهل اصهب منثور عليه شجر الزيتون ، قائماً في وسط دائرة من الجبال الشجية الاسماء. ترتدي اكتافها الضامرة في المساء ، عنـد غروب الشمس ، لوناً ليلكياً من الشفف والصفاء. بحيث تبدو قممها كأنها تكلل بالبنفسج جبين اثينا الرخامي . .

«على هذه القاعدة التي نحتت لتعرض لابصارنا اجمل المآثر التي شيدتها العبقرية البشرية لتجذب الالهة وتشعرنا بحلولها المجيد تنتصب خرائب البارثنون ، هذا الهيكل العجيب الموقوف لبالاس ، الآهة البسالة المستنيرة بالروح ، المهتدية بالقلب .

« بأي حنان حار اذكر اليوم تلك الساعات التي صرفتها على هذه الصخرة المقدسة ! فقد كنت اقضي ساعات النهار والليل ، جالساً تارة على قطعة عمود من الرخام الناصع وطوراً على اساس الهياكل الخالدة ، اتأمل الاكربول مملياً الروح من تنوع ما تراه عيناي من مشاهده . فعند طلوع الشمس ، حين تسيل دفقتها الاولى من قمة الايميت المستطيلة كسهم من المعدن في اثناء سبكه ، تبدو اعمدة البارثنون في اجمل لون على اجمل زهرة . وعند الظهر يبدو النور السني كأنه يحمل في زرقة السماء الراعشة هـذا الهيكل العظيم المفتوح كالكأس لاشعة الشمس . وفي المساء ، في تلك السكينة التي ينشرها المغيب الذهبي في سماء مشبعة بالعطور ، تتخايل على الصخرة اشباح ليلكيـة جبارة وقد استحالت هذه الصخرة ارجواناً وناراً .

« ومن هذا الحصن الذي تبدو عبقرية اثينا كأنها شيدته ليحرس انبل ما وعته عبقريـة الانسان يترامى النظر الى المجمع الذي علم فيـه افلاطون ، والى السجن الصخري الذي مات فيه سقراط ، والى المنبر الذي علم فيه القديس بولس الانجيـل لعبّاد الله المجهول ، والى هضبة البنيكس التي تألب فيها شعب اثينا ليهتف لبركليس واشين وديموستين ، واخيراً الى المسرح الذي رنّت فيه اشعار اخيل وسفوكلس واريستوفان واوربيدس . فهذا المقدار من العظمة يهب الروح البشري كبرياء مصيره ، ويطهره من جميع اقذاره ، ويحثه على الحياة – شأن الحكماء الذين اعطونا المثل – في سناء العقل الالهي الصافي وضيائه الناشط القوي .

فاكراماً لماض مثقل بمثل هذا القدر من المجد ، واعترافاً بكل ما يدين به البشر للعبقرية اليونانية ، لازميل فيدياس ومعارف اريسطو ، هلا جعلت الالهة محتلي حاضرة اثينا ان يتذكروا الكلمات النبيلة التي وجهها شيشرون الى كنتيوس اذ قـال له : تذكر يا كنتيوس انك تحكم على يونانيين حضّروا جميع الشعوب اذ علموهـا الرفق والانسانية ، واليهم يرجع الفضل في ما تملكه روما من العلوم والمعارف . . وهلا جعلت الالهة ايضاً ان تمتد الرأفة الى ابعد من العدل – كما ارادت اثينا آلهة الفكـر – وان يقدر للمدينة التي علمتنا قيمة الشخصية البشرية واعطتنا قواعد لتكميل هـذه الشخصية ، ان يقدر لها استعادة سيادتها وشفاء غليلها من فم الحرية؟»

طـــــاغور

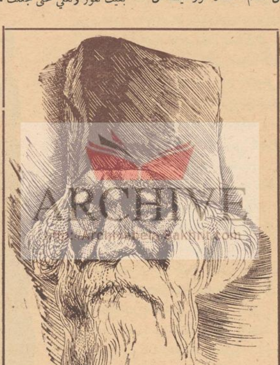
ان سكرة المادة هدمت توازن القوى الذي يتسلح به الانسان ليحافظ على الآله الذي في نفسه .

بهذا كان يعتقد شاعر الهند طاغور الذي غنى العالم ألحاناً مشبعة بالحب والحنان . وانه لمن اعظم الخسائر الروحيـة ان يتوارى في هذا الزمن المثقل بمظالم المادة، باحقادها وادرانها وبشاعتها، اطهر روحانية في اجمل وجه شرقي. فقد جمع طاغور الى حكمة الهند القديمة شاعرية الشرق مطيبة بانقى موسيقى واروع خيال . في قصيدتـه الكبرى « التقدمة الموسيقية » يتراءى لنا الشاعر كما خلقته روح الشرق وكونته رائعة نشيد الاناشيد والقرآن والفردوسي وعمر الخيام وحافظ .

ولا نزاع في ان طاغور صادف في طريقه، من القيثارة البنغالية الى كنـارة داود، جوانب شعراء الغرب كملتون وكتش وشلي، وربمـا بودلير وهوغو ايضاً. ولكنه اكتشف في نفسه تلك الذاتية الالهيـة التي احتفظت له بالمقدرة على النظم والتفكير، باسلوب كان يستعير من القارتين معاً قوة التوسع والجمال .

ومن قراءة مذكراته يتبين لنا ان شخصيته الفذة قويت في الاحتكاك بالحضارة المضطربة التي مر عليها مرور العابر وفي ما خلفت له الاجيال من عبر، وان حياته كانت حياة بسيطة طبيعية لم يتخللها الا قليل من الاحداث الجسام . على ان في روحـه صخباً اصم كذلك الذي يصدر في هدأة الليل عن ينبوع تكبح جماحه الصخور فلا يصير نهراً ولا ينتشر في الابعاد .

كان طاغور يستمد من الشرق والغرب ليقوت روحه الظامئة الى الجمال، ولكن تلك السيول من الموسيقى الاوربية لم تخرجه عن فطرته، ولم تطغ حتى على مسحة من روحانيته الشرقية . فقد لزمته تلك الشخصية العظيمة التي استيقظت فيها اقدم قوى عنصر يدين له العالم باغمض اساطيره واقواها، تلك الشخصية التي بقيت تفور وتغلي حتى جعلت منه واحداً من اولئك البشر الذين تلتقي فيهم صفوة الاجيال الماضية والمقبلة، ويمثلون سير الفكر البشري حيث يتوازن ما كان وما سيكون، حيث يلتقي في اتزان كامـل ليس ماضي عنصر ومستقبله فحسب، بل امس الشعور البشري وغده .



وقد تكون قصيدة «البستاني» اجمل ما رسمته ريشة هذا الشاعر المصلح . فقد جمع في رائعته هذه احاسيس خفيفة في ظاهرها، ولكنهـا محفورة سراديب في اعمق اعماق الروح البشري .

ولم تقتصر عبقرية طاغور على هذا وذاك، بل كان ملحنـاً موسيقيـاً ومنشىء مدارس ورحالة ورساماً عرضت رسومه الغريبة في معظم عواصم العالم. وكان فيلسوفاً معطراً، فيلسوفاً موسيقياً، من معلمي تلـك الحكمة المجنحة التي تصل بين الارض والسماء . كان كل شيء في نظره حياة داخلية تجزر وتفيض الى الخارج، وحياة خارجية تجزر وتفيض الى الداخل . فقد كان يجمع الاشياء المنظورة فيغمسها في نفسه ويكوّن منها صورة داخلية يضمها الى فتوحاته الكثيرة، الى فتوحات الشعر، الابن البكر للحب.

ابو ناصيف

آخر القافلة

تصميم لقصة طويلة

بقلم رضوان الشهال

◆



كان بالشارع الكبير مثل الجنون، تلك العشية، وبالرغم من الصيّب العاتي الذي انهمر مع الليل، والصرصر التي ما انفكت تعصف منذ الصباح كان الشارع الكبير، شأنه في كل مساء، يزخر بالحياة والنور والحركة، كأن هذا الآدمي الجديد الذي وضعته الحرب الماضية، قد ابى على نفسه الا السعي آناء الليل واطراف النهار، او كأن الزوبعة وقد فشلت في طرده الى وكره كانت تنفخ في نفسه كل جموحها وعتوّها والجبروت.

كل شيء كان يموج ويضطرب ويختلج ويرتج، بين حافلات تتوالى في جلجلة الرعد على صرط من حديد، وعجل تعوي كالذئاب الهائمة في ملاوي الشارع، فزحمة اقدام وعزيف كأنه من ديار الجن يذيع في كل مكان، وغلمان صيح يزفون الى الملأ آخر ما دار به الدولاب. فانوار تعصف هنا وانوار تعصف هناك وانوار تنساب في انابيب وانوار تنبثق في ازرار وانوار تكر واخرى تدور، ثم تنطفيء ثم تضيء ثم تدور ... وتدور الى ما يشاء الله او يشاء هذا الآدمي الجديد.

كل شيء كان يموج ويضطرب ويختلج ويرتج في الشارع الكبير، تلك العشية، الآ شيئاً واحداً او رجلا كالشيء، وقف على هامش من الشارع يتقي المطر، وكأنه صنم من الشمع، فلا رفة هدب ولا لفتة عنق ولا حركة، الا ان يفاجئه سعال فيسلخ يده من دفء جيبه ويحكم الاغلاق على صدره دون الريح، او يباغته عطاس يختلج جميعه له، او تشتهي نفسه لفافة تبغ تستلزم اليدين معاً.

كان يشخص الى شيء بالشارع لا يراه او لا وجود له في الواقع. على كل، لم يكن ليبدو كمن يترقب ان تنضب ينابيع السماء فيمضي الى شأنه، فقد ينقطع المطر بعد هنيهة، فلا يبرح مكانه او لا يفكر في براحه أصلا. كأن ذاك الشيء الخفي الذي يشخص اليه دون ان يراه قد سمّره في مكانه هذا الى اجل في علم الغيب.

والواقع ان بصره كان مطروحاً في الشارع كشيء ليس اليه من حاجة، او أنه كان بعينيه مثل الذهول الذي تستحيل فيه الاشياء غبشاً بلون الضباب، يتداخل في بعضه وتضمحل فيه الحدود. ولعل مثل هذا الذهول كان بسمعه ايضاً، فما كان ليصل اليه من صخب الشارع غير لغو متضائل كأنه آت من مكان بعيد، جد بعيد.

لا ريب في ان امرأً كان يستبد بخاطره ويغرقه في مثل هذا الذهول . ولعله كان يفكر ، على سبيل العبث ، فيما يمكن ان يكون من امر هؤلاء الناس المتهافتين على غير هدى ، بعضاً وراء بعض ، لو انه اعترض سبيلهم فجأة ، فاستوقفهم ، ليزعم لهم ، صادقاً غير كاذب ، ان هذا الشارع الكبير الرائع وما شب فيه من شواهق وما يموج فيه من خلق ويضطرب من حياة ويختلج من نور ويرتج من آلات جميعها ملك له ، وان هذا الشارع نفسه كان في دماغه وعلى كفيه قبل ان يمي على حضيض الشارع حجراً فوق حجر .

وماذا يمكن ان يكون من امر هؤلاء الناس ، الا ان يسخروا حيناً ويقهقهوا ، او يتعدوا السخر والقهقهة الى ما لا يستحبه الرجل على اي حال . كأن تحامرهم الغيرة مثلا على مدينتهم النظيفة ، فيهيبوا بالجلاوزة ان يكنسوا هذا المخلوق القبيح الوسخ مع ما يكنسون ، او يستنجدوا بشرطي او اثنين اذا دعت الحاجة ، يكفيان المدينة شر معتوه آخر ؟

على كل ، هو لمّا يفقد رشده بعد ، رغم الحمى التي تنبض في رأسه المتثاقل وتدك من عصب رجليه ، فهو لن يفعل شيئاً من ذلك . فليس يهمه ان يعلم الناس من هو او يصدقوا ما يقول . وليس ليستهويه قط ان يضفروا لهامته الغار ، او يرفعوه على الاكف او ينحتوا له تمثالا من المرمر يقيمونه وسط الزحام ويجعلونه مزاراً كمزار الشهداء يحجون اليه مرة كل عام .

حسبه هذا الايمان الواثق بأنه لم ينفق حياته عبثاً ، وهذا الفرح الاكبر الذي يستبد بالخالق امام خليقته . اما القانون الذي صنعه الناس ، فليطوّب لغيره من الناس ، في سجلاته العقارية المتخومة ، جملة هذا الوجود الذي يضطرب من اطلال المدينة القديمة ومقابرها حتى يدرك مياه المتوسط .

قد لا يكون هذا كل ما كان يفكر فيه . ولعل معظم همه تلك العشية كان ان يجد مأوى ، غير الاعتاب ، يلجأ اليه من غضب الزوبعة ، فبعضاً من الحساء الحارة ، اذا امكن ، يبعث في صدره بعض الراحة . او لعل معظم همه كان ان يبحث كيف يتحصل له المأوى والحساء . فلقد انفق آخر دراهمه ، منذ برهة ، لقاء علبة من اللفائف او شيء من الطمأنينة ، على زعمه ، فهو قد يصبر على الجوع ، لكنه لا يملك ان يمنع كبرياءه ان تنهار ، رغم انفه ، على عقب لفافة لفظها احدهم . وليس الاستجداء من شيمة كفه الابية التي طالما جادت على الناس فيما مضى .

على كل ، كان لا بد له ، تلك الليلة ، من مأوى واي شيء كالحساء ، فيروح يسرّح بصره القانط في ارجاء هذا الشارع الغني الذي يملكه على زعمه ، فاذا هو لا يملك فيه شيئاً ، حتى ولا ان يحتسي جرعة من الحليب الدافئ في حانوت بلغ من الوضاعة ما بلغ ، او يجوس خلال هذه الابنية الفخمة الآمنة من شر الزمهرير ، فيحط عن نفسه ، وان الى حين ، شيئاً من هذا التعب الذي ينهكه نهكاً موجعاً مستمراً .

واذ ذاك يبتسم الرجل ابتسامة هادئة رسب في طرفيها كثير من الحزن والمرارة والسخرية والقنوط والعذاب . لكنها لا تلبث ان تمحي فجأة ، او تدهمها هبة من الزمهرير تدفنها طي تجاعيد سحنة مكفهرة ترتعد . فيجمع الرجل بعضه الى بعض ، ويطوي نفسه على نفسه ، ثم يطرح بصره شاخصاً الى الشيء الخفي الذي لا يراه ، وكأنما قد وطن النفس على ان يظل صنماً من الشمع ، تتجسد فيه النقمة والبرد والحرمان ، صنماً في مكان من رحاب الشارع الكبير .

◆

كذلك كان لا بد له آخر الامر ، ان يعود الى هذه الارض التي درج عليها اول ما درج . كأن هذه الكرة العجيبة التي ما تكل من الدوران على نفسها ، منذ الازل السحيق ، قد حتمت على ابن آدم ان لا ينتهي الا حيث بدأ .

لقد كان مثله كمثل الذئب الهرم يوم ينعق في ضميره نفير الآخرة فينطلق يطوي الاودية والجبال والسفوح والهضاب شطر الكهف الذي ولد فيه ليموت فيه . فقد استبد بصاحبنا يومئذ ذاك الحنين العنيف الذي لا ينشأ الا في الغربة . فمضى كما يمضي الحاجع في سفرة عجيبة من اسفار الحلم ، دون ارادة ولا قصد . ولو انه كان يملك ان يريد او يفعل ما يريد ، لما وطئت قط له رجل تراب هذي الارض العقوق التي خرج منها ، لبضعة وعشرين عاماً خلت ، مطروداً كالمجرم تسربله اللعنة ، ليمضي ، غير مأسوف عليه ، الى صقيع غربة نائية لا يشيّعه اليها غير اطلال داره المسوّدة التي عصفت بها النيران ليلا كاملا .

حكاية قديمة ، جد قديمة قد ترجع الى اقدم ما يسع الفكر ان يرجع اليه من اغوار التاريخ ، منذ كان على الارض جماعات تتكتل وكان بين الجماعات افراد يشرق على جباههم وحي العبقرية ، فاذا هو صراع هائل مستديم ، يطوي مراحل الزمن جيلا بعد جيل ، بين قوى عمياء ، جاحدة ، غاشمة ، لا تؤمن الا بنفسها وبماضيها ، ونفوس نيرة لا تؤمن الا بالخير والحق ومستقبل الحياة . لعل من

اجل ذلك انتحر سقراط ، وكان يوم الجلجلة ، وكان يوم الهجرة ، ولعل من اجل ذلك كان ما كان من امر تلك القافلة من الرجال ، يوم هبوا على صعيد بلاد العرب ، منـذ اكثر من نصف قرن ، ليرفعوا المشاعـل ويغنوا لحنهم الزاخر الغني ويحملوا على أكفهم السخية أطياف عالم نير جديد . فاذا عصفت بهم زوابع الطغيان والعسف والنقمة ، لم يتراجعوا دون الزوابع بـل صمدوا ليصارعوا حتى الرمق ويتساقطوا واحداً بعد آخر ، فوق هذي الارض العقوق التي لم تمد بشانق الشهداء ، ولم ترتو من دماء المجاهدين ، ولم تف بعهد ابنها البار ، ذاك الذي طردته الى صقيع الغربة كالمجرم تسربله اللعنة . او لعل تلك الحكاية القديمة ، ليست ، في الحقيقـة ، الا حكاية هذا الاخير — او آخر القافلة — يوم عاد من الضفة الغربية من البوسفور ، يحمل على كفيه اشباح عالم نيّر جديد ، وكأنـه كان يحمل الخراب الى مدينته القديمة ، او مدينة السادة «الغطارفة» تلك التي كانت ما تفتأ ، لاجيال عدة خلت ، تهجع هجوع الحشرة الخائفة ، في مهبط ، بين برج من بقايا التاريخ تسكنه خرافـة ، وجبل مجدب اجرد كالجمجمة ، ووقف قـديم من شجر الزيتون يتمطى على آكامه كسل الناس ، ومقبرة عامرة بالاضرحـة « يعيش » فيها اموات .

اجل ! لقد عاد يومئذ لينفخ الزوبعة في هذا المستنقع البشري الآسن ويدفعه فوق رفات الاموات سيلا من الاحياء الاصحـاء الصالحين يضطرب ساعياً في شارع كالصراط المستقيم ، حتى يدرك مياه المتوسط . فكان هو اول الخوارج ، وطيء الدستور الموروث ، وراح فيما وراء المقبرة يطرح اول حجر في هـذا الشارع الذي لم يكن ، ذاك الحين ، الا كثباناً من الرمـل ، وبساتين مهجورة يأوي اليها نعّق البوم والاغربة وضواري الوحش والبشر وعفاريت الحكايات .

فيميد بالمدينة ما يشبه الزلزال ، ويستفيق الهجّع على مارق من شيعـة ابليس يزعم لهم انه « حكيم اجساد » ويحدثهم عن شيء لا تراه العين اسمه « الميكروب » فيقهقهون ويقولون : « لا فرّج الله له كرباً » وتذهب النكتة ذائعة على الالسن . ثم يؤكد لهم ان مساكنهم الرطبة الآمنة — على زعمهم — من حر الهاجرة ، مرتع لجرائم السل والحمّى ، وان بالشمس والضياء والهواء لحياة للناس لو يعلمون ، فيستضحكون مرة اخرى ويقولون : « معتوه يهجر ديار الانس والنعيم ، ليسكـن في وحشة القفر ، الى الضواري والعفاريت والاغربة . » حتى اذا ضاقوا به آخر الامر او ضاق بهم فآثر الجد في العمل على لغو الكلام تحركت في نفوسهم رواسب الغيظ والنقمة ، فقذفوا به بعيداً عن مدينتهم السعيدة في احد الاصباح بعد ان لبث اللهيب يعصف في داره طيلة الليل .

حكاية قديمة طويلة ، لعله نسيها فيما بعد او تناساها ، او لعله لم يذكرها الا منذ يومين اثنين حين أطلت على عينيـه الذاهلتين معالم مدينة شعشاعة غير التي يعهدها . لكأنها السبيكة اللألاءة قذف بها البحر في يوم جنته ، او دنيا انبتها من الارض ساحر عفريت خارق ، ذات ليلة عجيبة من ليالي الاساطير . فلقد اخذه الذهول عندئذ وتركه عند مرتفق الباخرة كالمسحور ، يختلط على وعيه الزمان والواقع حتى ليخيل اليه ، لوهلة ، انها رؤيا تضطرب في دماغه المحموم ، كتلك التي كانت تضطرب ، لبضعة وعشرين عاماً خلت ، يوم كان يعود من عاصمة السلطان على نفس الطريق .

ولولا ان الباخرة كانت تقترب وتستمر في الاقتراب ، لتنعق بعد حين نعيق الاياب ، ويجس حديدها « اسمنت » الرصيف ، لما كان لصاحبنا ان يصدق ان ذاك العالم القصي الذي خلفه وراءه اطلالا سوداً وآمالا حزانى ، قد شب على نفسه ، فيما يشبـه المعجزة ، وان المستنقع القديم قد اندفع فوق رفات الاموات ، سيلا من الاحياء يضطرب ساعياً في شارع كالصراط المستقيم حتى يدرك مياه المتوسط .

كان الوقت ليلا حين رست الباخرة . والمرفأ يعج بالناس تبهرهم فوهة الشارع الكبير افواجاً افواجاً . والاضواء تستحم في الخضم الهادي ، فتموج حيناً ثم تتلاشى في العمق . فصخب لا يهدأ وحركة لا تكل ، والشارع الكبير يمتد دون البصر ويترامى فلا يدرك له آخر . . فيعصف بصاحبنا ذاك الفرح الاكبر الذي يضيع فيه الرشد ، ويتراءى له في وهم الظن ان اولئك الخلق ، انما هرعوا يستقبلونه ويمضون به في مهرجان يطوف المدينة . فيطرح بصره المحموم في كتل الناس وتتحفز الحركة في عصب ساعديه . لكنه سرعان ما يرتدع او يردعه الواقع ، فاذا ليس في جموع الناس يـد واحدة تلوح له ، او عين واحدة تتريث على عينيه ، او صوت واحد يحمد له السلامة ، فيسلخ بصره من الوجوه فارغاً ليضرب به جلمود المرفأ ، ثم ينطوي على نفسه ويغيم وجهه بالضباب .

ويهبط سلم الباخرة آخر الهابطين ويؤوب على الارض التي درج عليها اول ما درج ، وحيداً يحس الغربة والكآبة واحساس النملة الضئيلة المتواضعة التي تدب على حضيض عالم طويل عريض شاهق .

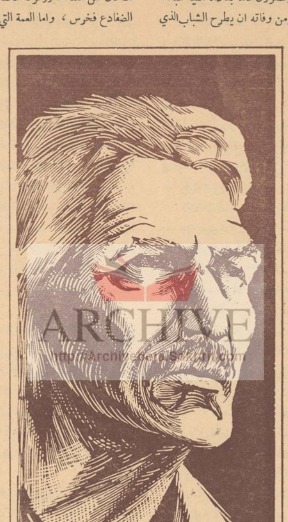
◆

لبث يطوف يوماً كاملا ليخرج من تطوافه بأشتات من الخواطر

جمعها فكان الحاصل حقيقة مؤلمة اشد من الصفع : لا مكان له في هذه المدينة! هو غريب عنها بقدر ما هي غريبة عنه ، وان بينها لهوة سحيقة غارت في اعماقها بضعةوعشرون عاماً بدّدها التيه هباء.

اجل ! لقد اخطأ في حساب الزمن وفاته ان يطرح الشباب الذي راح والعافيـة التي ذابت والعصب الذي وهن والنشاط الذي خبا والامل الذي خاب. او لعله نسي انه ليس الاطيفاً من الماضي او ذكرى ،وان هذه المدينة الجبارة المحدثة قد نزحت من دماغـه الى الابد ، لتعيش على حضيض الواقع ، ويعيش فيها جيل صاخب جموح يطوّقها بكل ما تركته اجيال الموت السالفة في نفسه من هرم بعث شباباً وكبت تمخض بالطغيان . او لعله كان يجهل ان هذا الجيل المنطلق على عجل من حديـد لا يلتفت الى الوراء او ليس من طبعه ان يلتفت. وان مكان الطيف والذكرى في دنيا الاطياف والذكريات، هنـالك ، فيما وراء المقبرة ، حيث تختلف اشباح السالفين على انقاض حزينـة من ماضيهم الواجم .

فيمضي يحمل نفسه على الدرب الموحل الذي يلتوي مرات عدة ، قبل ان يبلغ الباب القديم، فيلجه مع الليل الهابط . وقد اخذت تلوح طي العتمة اضواء خابية حزينة كانت وحدها الدليل على ان بالمساكن رمقاً . فيمر بشرذمـة عاثرة من كلاب شرّد جياع تتردد في حيرة بين المزابل العجيبة . ويصادف حارساً كأنه طيف مثله يجوس على مهل خلال الديار، ضارباً وحشة



الزقاق بعصاه ضرباً بطيئاً متوالياً . ويطل عليه مسجد مهجور يغص بالوحشة والصمت ، الا حفيفاً كالنشيج يموج بصفصافة مطرقـة في مكان من الفناء ، ورقرقة خافتة يغرورق بها ميزاب البركة . اما الضفادع فخرس ، واما العمة التي لاحت فغارقة في عتمة التهجد . عالم يفني او يكـاد .

والرجل يجوس خلاله خافض الجناح كأن هذا الوجوم المخيم يتسرب كله الى نفسه لينبش من اعماقها ذاك العذاب الذي يحسه المجرم حين يضطرب في ضميره رمق من الضمير . فيطأطىء هامته ويستأنف الطواف الهائم بين الازقـة الخاليات الخرس . . لا حس ولا حركة غير الريح التي ترف وترطم مصاريع النوافذ، فهرة تموء وكلب ضجر ينبح وخفاش يتهاوى بين سيول الريح وبومة تنعق بين حين وآخر ، كأنها تستعجل الفناء الى هذه الدمن التي تحتضر على مهل . فيقشعر قلب الطائف الهائم، ويحسب لوهلة من الزمن انه ليس الا مخلوقاً عجيباً كهذه المخاليق العجيبة التي تؤم الخراب . أليس هو الذي قاد الخراب الى هنا ؟

كان يسعى ، على غير هدى، في الزقاق الصاعد نحو أطلال الدار الفخمة القديمة ، تلك التي عمرها ابوه ثم جاء هو يهدمها عامداً ، ويقذف بأحجارها الى ما وراء المقبرة ليبتني بها اول دار في الشارع الكبير كان يمضي نحوها، على غير وعي، كأن ضميره هو الذي كان يسيّره . والحق انه تعب من الشعور بالغربة في عالم تنكر له ، وتاق الى مكان لا يكون فيه غريباً وان كان

هذا المكان اطلالا دارسة . فهو واجد فيه ، على الاقل ، ذاك الاحساس بأنه يملك شيئاً في هذه الدنيا . وان كان هذا الشيء ليس الا حفنة من تراب او بقايا من عتبة او ركناً من باب .

لعل ذلك كل ما بقي ، في الواقع ، من الدار ، أو كل ما أبقى هو عليه منها . فلم يك في حاجة ، يوم هدمها ، الى التراب ينقله الى ما وراء المقبرة ، ولا الى العتبة الرخامية وقد آثرت ان تنشق . اما الباب او البوابة ، فما لا شك فيه انها لم تكن مما يليق بأن يتصدر داراً حديثة الطراز . . لقد كان عليها نقش شرقي قديم ! .

ها أنه يملك اخيراً ان ينيخ بتعبه على عتبة او بقايا عتبة ، دون ان يعترضه احد او يكون لاحد حق في اعتراضه . فيتراخى على مهل ، ويتذوق الى حين ، تلك اللذة التي تتمشى في الاطراف بعد السعي الطويل . ويستلذ الدفء الفاتر ينفثه في قلبه هذا الرجوع الى ماضيه او بعض ماضيه حتى ليشعر ان صقيع الرخام يستحيـــل في جوفه دفئاً .

على ان هذا الدفء وتلك الراحة لا يلبثان به الا مـــا يلبث الرجع ، كأن ذاك الماضي او بعضه كان هاجعاً في ركن الباب وبقايا العتبة واديم التراب ، حتى يأتي هذا الطارق يوقظه فيتمطى ويهب بأنقاضه يبنيها دفعة واحدة :

هنا جاء ابوه مرة ، في يوم من ايام كهولته ، بعد سنين كثيرة من جهد وعذاب وحرمان وعيش اسود ، يحقق احلامه الصامتة ، فيشيد داراً يخفق عليها كل جلال عصاميته القادرة . ثم يروح يبتسم في هدوئه المتواضع لالوف من الاحداق الجاحظة ، في مدينة السادة « الغطارفة » حيث لم تكن السعادة والشقاء والفقر والغنى الا كما كانت المدينة بأسرها ميراث الاجداد للاحفاد .

اجل ! هنا جاء التاجر الوضيع المغمور ، من زاوية قائمة من دكانه الوضيع القائم بسوق القمح ، لينصب نفسه ، رغم انف السادة ، سيداً ذا جاه تسعى بين يديه جماهير من اهل المدينة ، فيرغم السادة على السؤال عنه والوالي على الافطار على موائده . واذا هو يمحي من اذهان الناس ، فيما يشبه المعجزة ، اجيالا من العذاب والهوان والعيش الاسود ، عصفت بآله السالفين وذرياتهم المذرورة ، كالمطاربة الرحل في انحاء المدينة الاربع .

كل عبقرية ابيه كانت مسطرة على جبين تلك الدار التي نحت حجارتها من جلمود عناده الصامت ، وجبل طينها بذوب عافيته ، ثم زفها الى تاريخهم العائلي الاسود صفحة مشرقة كالتي سطرها من قبل ، سيف جدهم الاكبر تحت الوية ابن ايوب .

ثم جاء ، هو ، وريث تلك العصامية الباهرة ، في يوم من ايام شبابه ، بعد سنين من دراسة جدية في « المكتب الطبي السلطاني » بالاستانة ، وسياحة طويلة في ديار الغرب ، ليهدم في ايام معدودات قلائل ما بناه ابوه طيلة عمر كامل ، ويمحي من خاطر الوجود ، بين ليلة وضحاها ، ذكرى مجيدة لحياة مجيـــدة عاشت وشقيت وجهدت وبنت ، كأنها لم تعش ، ولم تشق ولم تجهد ولم تبن .

فيم فعل ذلك ؟ بل فيم اقترف ذلك ؟ وكيف اباح لكفه الرعناء ان تعيث في هذا الارث القيّم وتهدمه وتمحيه ؟ اجل ! فيم اقترف ذلك ؟

سؤال رهيب ومض في خاطره كالبرق ، او سقط عليه كما يسقط الحجر الضخم في الخضم الهاجع الساكن . فاذا هو موج وزبد ورجع رهيب اجش كرجع الصدى في بئر عميقه . فيرتبك او يذهل كما يتفق للمفاجئة ان توحي الارتباك او الذهول . ثم ينسلخ فجأة من العتبة الباردة وينتصب على قدميه كأنه هب في وجه عدو او كأنه ادرك الى اين يريد ان يصل من سؤاله هذا الصوت الخفي البغيض . .

صوت الشك ! لعمر الدنيا ، ماذا بقي له من الحياة غير الايمان بنفسه وبرسالته ؟ ليبترن انامل الشك بتراً دون هذا الايمان ! لقد انفق ، هو الآخر ، عمراً كاملا في سبيل رسالته ، فبدد المال ونهك العافية وارتضى غير آسف ولا برم ، كل ما شاء للحياة سخرها ، ان تزف اليه من البؤس والاضطراب والعذاب . فلن يسمح لهذا الصوت الخفي البغيض ان يناقشه الحساب ، الآن عند آخر المرحلة وقد انتهى كل شيء .

واخذ يغمره شيء من ذاك الحماس الذي كان يعمر قلبه فيما مضى ، يوم شاءت له رسالته المتهورة ان يصارع لوحده مدينة بأسرها . وشرعت تفد على خاطره افكاره القديمة الجريئـــة تلك التي نحت منها رسالته ، فمضى يرددها في همس الذهن كمن يردد مقاطع من أغنية شجية حبيبة الى قلبه .

لكأني به اخذ يذكر ذاك المستنقع البشري الآسن الذي استفاق فيه على نقيق الضفـــدع الثرثار ولسع البعوض المتخوم من الجراثيم والجيف . فطفولة قاصرة تستبد بها شيخوخة مريضة جاهلة ، وانوثة عاثرة مؤودة طي الحجب ، شأنها ان تخدم شهوات الزبانية في ذاك الجحيم البارد بين مطبخ ومضجع ، فدماغ راكد بين اسوار اربعة من خرافة وجهل واتكال وميراث . او كأني به اخذ يذكر ذاك الهول الذي خامره يوم أدرك الى اية هوة من الفناء تجر المدينة هذه الاوضاع الشاذة ، فهب ، لوحده ، كالمارد يقف في وجه المواكب

الزاحفة على غير هدى نحو الفناء ، ويردّها الى جادة الحياة .

كذلك كان لا بد من زوبعة عاتية يطلقها على المستنقع وضفادعه وبعوضه ، وكان لا بد من صراع مع الشيخوخة الجاهلة المستبدة لينقذ الطفولة او المستقبل الكامن فيها . وكان لا بد من مبضع يمزق به الحجب دون الانوثة العاثرة او دون الحياة المضمرة في احشائها ، وكان لا بد اخيراً من معول يدك الاسوار الاربعة لينطلق الدماغ الراكد على جادة الزمن في أثر القوافل البشرية الناشطة . اجل ! كان لا بد من كل ذلك ، حتى يثبت على صعيد الكرة حق مدينته في الوجود .

« انما الحق للحياة . والحياة حركة . ولا حق في الوجود للحي الذي لا يتحرك » .

تلك كانت آية رسالته الكبرى . رددها ، لا همساً في الذهن بل بصوت هادي ، اجش جليل النبرة ، كأنه كان يود لو تعيها الاطلال والريح والارض . او كان يشاء لها ان تكون رصاصة الخلاص ، يخرس بها ذاك الصوت الخفي البغيض .. صوت الشك !

ثم راح يتمشى امام الطلل جيئة وذهوباً ، يحاول ان يستلغي صدى هذه الافكار وذاك الحماس في نفسه . او يحاول ، في الحقيقة ان يستدرج كل ذاك الحماس القديم ، او جميع تلك الافكار القديمة الشاردة ، ليستأنف سجاله فيتكلم ويظل يتكلم حتى يطلع النهار ، دون ان يدع للشك فرصة لسؤال .

لكنه يظل صامتاً ، لا تخطر في رأسه الحائر فكرة ولا طيف فكرة . يا للعجب ! بل يا للهول ! ايخونه ايمانه في هذه اللحظات الرهيبة ؟ ترى أكان ذاك الشيء من الحماس الذي غمره مصطنعاً ، او وليد حاجة عابرة الى الدفء ؟ واي صدى هائل هذا الذي يتجاوب في ضميره ؟ لكأنه هزيم قهقهة عاتية يتدحرج فيها السخر جلموداً لا يبقي في طريقه على شيء من الكبرياء قائم ! فاذا هو ينهار فجأة على العتبة الباردة او الواقع البارد ، ويروح يدفن وجهه بين كفيه .

يا له من شقي ! بل يا له من طفل عنيد مكابر ! فيم يتحمل هذا الوجع الذي يمضه منذ الامس ، فيداريه حيناً ويتجاهله حيناً آخر ؟ ولم لا يبج تلك الدملة التي في جوفه بالمبضع الذي الف ان يبج به اوجاع الناس ؟ بل لم يكذب على نفسه ويحاول ان يخفي عنها تلك الحقيقة الهائلة التي خرج بها من الشارع الكبير امس ؟ افيبخل عليها ، عند آخر المرحلة ، بشيء من الراحة ، بعد ان اوردها جميع موارد العذاب والاضطراب والبؤس ؟ اجل ! لم لا يبوح ويعترف ، بل يصرخ في آذان الفضاء والارض والاطلال والريح .. انه مجرم ،

ثم ينتهي الامر ؟

ألم يقتل اباه عند آخر لحظة من حياته ؟ تلك النظرة الخائبة الناقمة الاليمة التي سددها اليه المحتضر ، بعدان رأى موضع أمله الاوحد الاكبر خيبة قاسية ساحقة ، تلك النظرة ، اتراه نسيها او استطاع ان يتناساها ؟ او تراه كان قادراً على ان ينزع من خاطره المعذب طيف صاحبه القديم الثائر الشيخ ابرهيم بعد ان دفع به تحت رصاص الغدر والنقمة ، في سبيل هاجس عرض لخاطره مرة حتى اذا استبد به سماه رسالة ؟ وما قيمة هذه الرسالة بعد كل حساب ؟

لقد اتيح له امس ، في الشارع الكبير ، ان يدرك حق قيمتها اخيراً ، بعد ان رآها ، لا كما تعود ان يراها ، ايماناً اهوج او افكاراً طاغية في خاطر محموم ، بل حجراً بارداً كالجريمة .

ماذا رأى في الشارع الكبير ؟ جيلا محموماً يموج ويضطرب ويختلج ويرتج ، جيلا كافراً لا يؤمن ، حائراً لا يهتدي ، هائماً لا يرعوي ، طاغياً لا يرتدع ، يشقى دون ان يعلم ، بين الحجر والحديد ويسعى ، دون ان يدري ، نحو فناء لا يراه ، بل الى بحر طاغية مشاع بلع من قبله اجيالاً وامماً ومدنيات ، جيلا شقياً عاثراً . انما هو الذي نفث في شرايينه عدوى الحمى ونفخ في نفسه الكفر والحيرة والهيام والطغيان وحتم عليه الشقوة . بل هو الذي شق له طريق الفناء . وفرض عليه السرعة الهوجاء القاتلة ، حين كان عليه ان يذكر ، اول ما يذكر ، ان النبض السريع كالنبض البطيء ، كلاهما يودي بالقلب البشري . وان نقطة البداية والنهاية في الدائرة الوهمية التي ترسمها الحياة .. واحدة .

احقاً كان يريد الحياة لتلك الطفولة القاصرة التي كانت تستبد بها شيخوخة مريضة جاهلة ، وتلك الانوثة العاثرة الموؤدة في جحيم بارد ، وذاك العقل الراكد بين اسوار اربعة ؟ يا لخيبته القاسية اذن فيما اراد . تلك الطفولة القاصرة ظلت طفولة قاصرة يستبد بها ، لا شيخوخة مريضة جاهلة ، بل شباب اهوج عات مجنون ينطلق بالمستقبل الكامن فيه الى حيث لا غاية ولا هدف . اما حواء . فقد خرجت من جحيمها البارد لكن الى جحيم آخر تذيب نفسها فيه على اللهب تهتكاً وجنوناً . لقد كان عليه ان يلقاها في كل مكان الا المكان الذي يجب ان تكون فيه .. لمحها على مقود سيارة تنطلق بها كالسهم الشرود ، ورآها تهرج في مقصف كأنها العاهر ، بين الكؤوس المترعة والالحان الفاسقة ورآها على موائد الميسر تنهك اعصابها قلقاً ، ورآها تهجر دارتها الى الشارع لتنزع من كف آدم لقمة العيش . رآها في كل مكان الا المكان الذي يجب ان تكون فيه وتفعل كل شيء الا الشيء الذي يجب ان تفعله من اجل تلك الحياة المضمرة في احشائها .

اما ذاك العقل الراكد فقد انطلق في اثر القوافل البشرية الناشطة، لكن في بيداء من التيه والحيرة والبلبلة . لقد كان الرجاء ان يهدي ويعمر، فاذا هو نفسه في ضلال واذا هو لم يبن قط شيئاً . انا الشارع الكبير قطعة من الغرب، في الحقيقة نقلتها البواخر عبر البحر الى هذه الضفة المشرقية لتضج وتصخب على اطلال هذا الشرق القديم .

غفرانك اللهم ! أيكون حتماً على الذي يود ان يعود الى الشرق يسكن اليه، ان يعود الى اخربة دوارس يسكن اليها ؟ غفرانك اللهم مرة ثانية ! لكأني بالعاثر داخله الجزع حتى مضى يستغفر ويضرع في ذهول الحائر الذي اختلط عليه الامر . لقد كان ذهوله عميقاً يرشح بالعرق البارد كالذهول الذي تحدثه الفاجعة . ولقد لبث برهة يحملق في الظلام على غير وعي دون ان يستطيع تفكيراً ولا شعوراً ولا احساساً، كأن البرهة لم تكن من الزمن في شيء . على ان الحقيقة الهائلة التي باح بها كان ينقصها شيء حتى تتم، شيء قليل يسير، عبارة واحدة او كلمة من عبارة، او لهثة اخيرة كآخر ما يخرج من جوارح المحتضر . لكنه كان يستلزم كل ما يمكن ان يكون من الشجاعة ورباطة الجأش . لعل من اجل ذلك تردد او لبث برهة لا يفكر ولا يشعر ولا يحس وقد ود لو تكون آخر عهده بالوعي . اتراه كان يستطيع ان يقول لنفسه ان حياته كلها كانت عبثاً في عبث، وانه فرض على نفسه العذاب والشقوة والاضطراب في سبيل لا شيء . . . لا شيء ؟

لكنه امر كان لا بد منه !

ثم مضى ينقل في قطع الظلام بصراً صعقاً . لم يكن هناك غير نجمة قصية في اعالي الفضاء القاتم ترنو اليه خلال السحب . او تدرك تلك النجمة ما معنى حياة ضائعة ؟ فلم يجبه غير الريح التي ترف والبومة التي تنعق بين حين وآخر والكلب الشارد الذي ما يكل من النباح والخفاش الذي ما فتيء يتهاوى بين سيول الريح . فيقشعر قلبه ويحس الزمهرير يهب عليه من اغوار سحيقة مظلمة رطبة كأغوار العدم !

يا لهذي الخواطر الغريبة السوداء تنشق عن قطع هذا الليل الغريب الاسود فتغمره وتسوقه على بحر مظلم ضلول ! من شاء له في قديم الزمان، ان يدرج على هذا الزقاق المعتم طفلا لا يعلم من اين اتى، ويسعى فيه كهلا لا يعلم اين يمضي ؟ عماء في الازل وعماء في الابد، والزمن بينهما يستمر ويستمر على صعيد اسمه الحياة او طلسم الطلاسم . لعمر الدنيا ما قيمة هذا الحيوان الآدمي الذي يدب كالنملة على ظهرها، ويفعل تارة خيراً وتارة شراً ؟ وما الخير وما الشر وما قيمتها ؟ بل اي شيء هو ؟ عبقري ام معتوه ؟ مجرم ام مصلح ؟ احقيقة هو ام طيف ؟ آدمي من الآدميين ام بهيمة من البهائم ؟ لعله بومة تنعق، او كلب شارد ينبح الضجر في نفسه، او هرة تموء او خفاش هزمته الريح او لعله آدمي مسخته القدرة العابثة مخلوقاً عجيباً تعيش فيه كل هذي المخاليق والا فلم لا يرتد نحو اولئك الآدميين الذين يهرجون في افراح النور والحياة والحركة ؟ احق انه غريب عنهم ؟ ولم ذلك ؟ بل لم لم تجبله القدرة من طينتهم بل آثرت ان تجعل الشذوذ محوراً يدور وجوده حوله ؟

بالامس كان طفلا لا يعيش مع الاطفال بل في دنيا كالجزيرة المعزولة عمرها من غزل اساطير جدته ورياح الشتاء . حتى اذا شب كانت الاساطير في دماغه فكرة وكانت الرياح في قلبه عزماً وايماناً فاذا اضطربت به الحياة بعد ذلك وتقاذفه التيه عاد ليرى فكرته حجراً بارداً كالجريمة وايمانه شكاً هائلا كالكفر !

لم عاد ؟ ومن ذا الذي شاء له ان يعود ؟ وما كان عليه لو قضى بعيداً على امل لم يتحقق ؟ بل ما كان عليه لو نفض يديه منذ البدء من اوحال هذي الارض الغاشمة العقوق ومضى يعيش من الدنيا على ضفاف جنة تغمره النعمة ولذائذ الحياة ؟ لقد كان له يومئذ كل ما من شأنه ان يوفر السعادة والاستقرار والنعيم !

حياة ضائعة بل رماد تذروه الرياح وهذا الصمت الرهيب العاند لا يخرج عن صمته ولسوف يبقى كذلك حتى الابد لا ينبس ببنت شفة ! أفليس من جواب غير حفيف الظلام المتداخل في بعضه ودبيب التعب في جسده المنهوك ؟ الا ليته يستحيل قطعة من رخام العتبة ثم يتلاشى في الدياجير !

وتأخذه غفلة تشبه النوم ؛ لكنها لا تدوم كثيراً او انها لا تدوم اكثر مما ينبغي كي يأتي طيف ابيه من ديار الآخرة يخطر فوق بطاح الضباب ويطرده من العتبة كالمجرم تسربله اللعنة .

أفلا يكون له حتى في عالم الاطياف والذكريات مكان ؟

كان الفجر يلقي على الدرب الموحل نوراً شاحباً يتسرب من فجوات السحاب وكان بالجو غضب ينذر بشر مستطير !

◆

وعاد الى الشارع الكبير ينصب نفسه صنماً من الشمع ؛ لا يلتفت الى احد ولا احد يلتفت اليه . والدنيا من حوله تموج رغم

الزوبعة وتضطرب وتختلج وترتج ، فلا يدرك سمعه من صخبها غير لغو متضائل كأنه آت من مكان بعيد ، جد بعيد ، لعله صوت ذاك الشيء الخفي الذي كان يشخص اليه دون ان يراه ، وقد اخذ يراه الآن بعد ان صرعت وعيه مطارق الحمّى ولاشى اعصابه الجوع والوجع ، شيء بعيد يتلوى كالتنين الهائل مقبلا من مدخل الشارع القصي . لقد جحظت عيناه عندئذ من الهول وراحتا تزدادان جحوظاً وهولا كلما ازداد ذاك الشيء قرباً ، فاذا هو ليس بالتنين بل سيل ، ويا للبلاء يزحف بجحافل من امواه طاغية عكرة . . . بل سيل من الآدميين والحافلات والعجل . . ينطلق على غير هدى شطر البحر . . . ويل لهم ! لقد يبتلعهم البحر . . .

وشرع يصيح كمن خولط في عقله او كمن يتخبط في شرك كابوس مخيف . لكن صياحه اختنق في هدير السيل الذي ما يفعل الا زحفاً واقتراباً . . لقد بات على مقربة . . يا لهديره الهائل ! . .

ولكن ما له يظل كالصنم ؟ لا بد من وقف السيل بأي حال !

وتميد الارض بالرجل . . ثم ينجرد في عرض الشارع شعلة من الحماسة الهوجاء العاصفة . .

وتنطلق صفارة الشرطي ، على حين غرة ، تشل الحركة في الشارع الكبير ، ويتهافت النـاس ، بعضهم على بعض يتساءلون عن الضحية :

– فقال بعضهم : احد السؤّال .

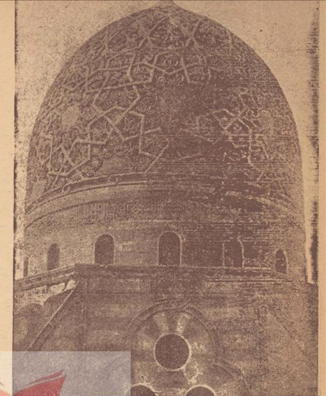
– وقال بعضهم : متشرد ولا ريب .

على كل ، لم يكن الحادث مما يستوجب الاهتمام ، فسرعان ما قضي الامر وصرفت السيارة القاتلة ، وجاءت نقالة الاسعاف تلم الصريع ! وفيما هو يلفظ انفاسه الفاترة بلا حقد ولا شوق ، كانت صفارة الشرطي تدوي للمرة الثانية ليعود الشارع الكبير الى شأنه ، يموج ويضطرب ويختلج ويرتج بين حافلات تتوالى في جلجلة الرعد على صرط من حديد ، وعجل كالذئاب الهائمة تعوي في ملاوي الشارع وزحمة اقدام ، وانوار تعصف وانوار تنساب وانوار تنبثق واخرى تكر ثم تنطفئ . ثم تضيء . ثم تكر وتدور . . وتدور الى ما يشاء الله او يشاء هذا الآدمي الجديد !

ترى من الرجل ؟ امر ليس مما يستوجب الاهتمام ، نكرة من النكرات التي لا تتردد على الشفاه . . ولا سطور التاريخ !

رضوان الشهال





احدى روائع الفن الاسلامي : قبة جامع قايتباي في القاهرة

الفن الاسلامي في نظر النازية

رد الدكتور يوسف شاخت
وشهادة العلامة الفرنسي غروسي

اذا كان في التراث الاسلامي العام شيء يستوجب الاحترام والامتنان من جميع الامم المتمدنة فهو بالطبع ما خلّفه المسلمون من روائع الفنون .

قد يظل فريق كبير من الناس غير شاعرين بمحاسن اللغة العربية وجمال شعرها وعلو آدابها ، وقد يعجز فريق آخر عن قدر الخدمات الجليلة التي اداها العالم الاسلامي نحو الفلسفة والطب والعلوم الطبيعية ، لكننا لا نعتقد ان في الدنيا رجلا متمدناً يستطيع التصامّ عن هتاف الهندسة الاسلامية الجذابة ، سواء في مهابة مساجدها الكبرى ام في لطافة المعابد ، وسواء في مظهر المدارس النبيلة التي تربّى فيها ناشئة مختارة ، ام في بلابل الماء الجميلة التي تروي ظمأ عابري السبيل .

لكن النازيين وحدهم تولوا ، دون سائر الناس ، مهمة تحقير هذه الفنون الممتازة ، فسجلوا بذلك على انفسهم بنداً جديداً من بنود عدائهم العميق الجاني لكل ما هو عربي او اسلامي . ولم يكن بعض صغارهم من يقوم بهذا التنطح المستهجن للاسلام والمسلمين ، بل لم يكن هذا الماجن المفتشت غير روزنبرغ احد وزراء الريخ الثالث ومندوب هتلر في الامور الثقافية . فان هذا الوزير المتمايل بين قلة العلم وقلة الاخلاص للعلم ، كرس صفحات عديدة من كتابه « خرافة القرن العشرين » وهو من الكتب الاساسية عند النازي ، للاعتداء القبيح على الفن الاسلامي .

ومن يطالع هذا الكتاب يشعر منذ البداية بان روزنبرغ يبني بكل صراحة كراهيته الشديدة للفنون الاسلامية ، لا على ذوقه الشخصي ، بل على نتيجة منطقية لخطة النازي العدائية نحو العرب ، صادرة طبعاً عن نظرية الالمان العنصرية ، فيقول : « ان الفن الاسلامي يكاد يكون كله وهماً من الاوهام ، وليس فيه دليل على شيء غير الفقر الروحي . فالاثار العظيمة التي تركها لنا الاسلام اصبح معروفاً انها مستعارة من روح غريب ، غير عربي . وان مجتمعاً ليس يدين بدين روحي يستمد من وراء الطبيعة ، لا يمكن ان تكون فيه قوة الابتكار . اما ان يكون هذا العقم في الروح مشفوعاً بايمان شديد ، فلا يغير الحقائق الواقعية ولا يبدلها . فعلينا ان نعتبر العربي دائماً خليقة مستغربة لكن غير قادرة على الابتكار .

ولا يحتاج هذا الكلام الى تعليق . بل نحن لا نجد ادل منه على كذب النازيين في مظاهر العطف الذي يرتأون ان يغمروا به العرب في هذه الايام تنفيذاً لخطة سياسية عارضة . فعداء هذه العصابة الالمانية للعالم الاسلامي قوي عميق الى حد انهم لا يخجلون من التصريح بان عظائم الاعمال الفنية التي تركها للناس عهد التمدن الاسلامي الزاهر ولم يستطع النازيون انفسهم ان ينكروا وجودها ، ذات اصل غريب عن الروح العربي .

ومن بعد هذا الاستهلال المنكود الذي يكشف الستار عن نوايا الروح الشريرة يعود روزنبرغ فيقول ان الاسلام لم ينتج ملحمة شعرية كبرى ، ولا موسيقى ذات قدر او قيمة ، ولا

هندسة بناء خاصة به ، بل انه استعار كل افكاره الهندسية من الآريين والفرس ولم ينجح في الباس المادة شكلا جديداً يتخذه من روحه وشعوره، بل حصر همه في اعمال الزينة الخارجية باسلوب « كيفي » غير خاضع لقواعد او لنواميس.

ولعمر الحق ، لم نر قبل الان مجموعة من الاغلاط والاضاليل كهذه الفقرة من كلام روزنبرغ . فان من يعرف علوم الادب عند الشعوب الاسلامية يستطيع دحض ادعاءات هذا الوزير النازي عن تقصير الشعراء المسلمين في نظم الملاحم الكبرى . واول ملحمة تخطر بالبال هي « الشاهنامة » رائعة الفردوسي الذي احتفل العالم باسره منذ عهد يسير بمرور الف سنة على وفاته.

اما الموسيقى العربية القديمة فيمكننا ان ندل على مفخرة من مفاخرها الخالدة وهو الخليل بن احمد العالم النحوي الشهير ، وعلى كتاب الاغاني المعدود من اهم الاثار الثمينة في الادب العربي فهو يدور كله على الموسيقى ، وعلى كبار الفلاسفة المسلمين ابتداء من عبد الرحمان الكندي وهو العربي الصرف الذي كان يعد الموسيقى جزءاً جوهرياً من الفلسفة ، وعلى عبد السلام الفارابي الفيلسوف الشاعر الذي كتب كتاباً عظيماً معدوداً من انفس الكتب عن الموسيقى . ولا ننس النظريات الموسيقية عند العرب ، والاصول التي اتبعوها وطبقوها، وانها تركت اثراً عميقاً في الموسيقى الاوربية.

واذا كان يمكن ان يوجد شيء اشد مخالفة للعقل من كلام روزنبرغ المتقدم بيانه فهو اعتقاده ان الهندسة الاسلامية ليست باسلامية لانها استعارت من الفرس بعض مظاهرها . والواقع انها لم تستعر من الفرس وحدهم ، بل ايضاً من الروم والبيزنطيين والارمن والاقباط والهنود ، ونجحت في دمج ذلك كله في قالب اسلامي خاص يمتاز من كل واحد من اجزائه بصفته الفارقة العامة.

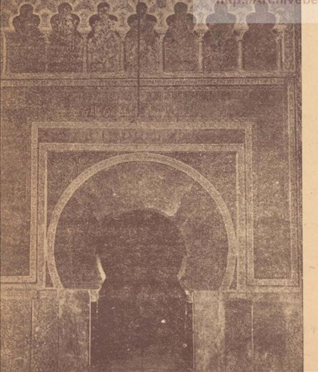
ونحن لا ندهش لهذا الجهل الذي يجهر به روزنبرغ في حكمه على الهندسة الاسلامية ، لانه اذا كان من مزية خاصة لهندسة الاسلام ، فهي بدون شك في انتظامها المختلف كل الاختلاف عما يدعوه النازيون وهماً واستبداداً .

ثم ان روزنبرغ يعلن عمايته الشخصية عن جوهر المسائل بعجزه عن تحويل عينيه عن عنصر الزينة الذي لا يدرك مغازيه اللطيفة في ذاته ، ثم يمعن في تحقير المظاهر الخاصة بالهندسة الاسلامية ، وهنا يتجلى عظم جهله لمبادئها الاصلية . مثال ذلك ان القناطر الهلالية التي يخطىء في حسبانها مزية خاصة لكل الهندسة الاسلامية ليست في نظره على شيء من الفن ، رغم ان الناس كلهم مجمعون على استحسانها والاعجاب بجمالها . والرواسب الكلسية التي تتدلى من السقوف وقد وصفها بعض الخبيرين بانها مثال قائم للجمال الفني لا يعدها روزنبرغ في حيز الاحتمال ، ناسياً او جاهلا انها مستعارة من الهندسة الهندية . ولو عرف ذلك عنها لارتفع مقامها « الآري» في عينيه المغمضتين .

وهكذا يتدرج هذا الوزير النازي في صب جامات اللوم على مزية بعد اخرى من مزايا الهندسة الاسلامية ، محاولا في الوقت نفسه تصغير فضل العرب فيها . فيعيد مثلا الاسطورة التي لا تاريخ يسندها ولا نقل يؤيدها ، والقائلة بان جامع ابن طولون في القاهرة انما بناه مهندس قبطي، متجاهلا ان هذا الجامع ادخل الى مصر هندسة سامراء وزينتها وكلاهما عمل اسلامي محض .

اما القناطر المسننة في جامع ابن طولون فيزعم روزنبرغ ان هذا كان اول ظهورها في مصر وانها نقلت عن قنطرة رخامية من كنيسة مسيحيـة في عكا ، ولا تزال هذه القنطرة المسيحية موجودة بحي النحاسين في القاهرة . ولكن جامع ابن طولون بني بين سنة ٢٦٣ و ٢٦٥ هجرية . والكنيسة المشار اليها في عكا بنيت بعد ذلك بمئتي سنة . والقنطرة التي اخذت منها الى القاهرة

قرطبة : مدخل المحراب في المسجد الكبير



انما اخذت لاجل جامع الناصر محمد في سنة ٧٠٠ . والواقع ان القنطرة المسننة ظهرت في بنايات الامويين ، والتحسين والاتقان اللذين ادخلا عليها كانا من صنع المسلمين في اوائل العهد العباسي . ولا يرتاب احد في ان الهندسة الاوربية في الاجيال الوسطى قد استعيرت من الهندسة الشرقية الاسلامية .

كل هذا يدل على جهل روزنبرغ المطبق وهو كاف لاسقاط حقه مع اتباعه النازيين ، في ان يصدق اقوالهم احد .

واليكم اخيراً فقرة لا يقبلها عقل ولا نقل يلخص فيها روزنبرغ حكمه الغريب : « ان اعظم مدى بلغته الهندسة الاسلامية يظهر على ستور المسارح للروايات الهزلية الغنائية . فالزينة الخارجية المبالغ فيها بدون رابط هي هنا في موضعها » .

هكذا الفن الذي رفعه المسلمون درجات نحو الكمال، لاحاطة مساجدهم بالهيبة والجلال ، لا يراه النازيون جديراً بغير تزيين المراقص والمسارح الغنائية، وهذا هو الاحترام الذي يضمرونه لدين الاسلام .

ويختم روزنبرغ قوله الهراء باستنكار عام للروح الاسلامي قائلاً : « ان المسلمين غرباء عنا . ويجب ان نبقى دائماً منفصلين عنهم بفوارق تثبت انهم غرباء . »

ولعمري ان هذا التنصل من اية لحمة بين الاسلام والنازية لهو الحكم الوحيد الذي يوافق المسلمون عليه، بكل طيبة خاطر .

شهادة العلامة غروسي

ومما يحسن ايراده تأييداً لاقوال الدكتور شاخت في رده البليغ على سخافات روزنبرغ الالماني واراجيفه عن الفن العربي الاسلامي ما تضمنه الكتاب الضخم الذي نشره السيد لويس رايو في باريس سنة ١٩٣٩ وعنوانه « تاريخ الفنون العام، من اوائل الزمان الى هذه الايام » . فقد جاء في مقدمة المجلد الخاص « بالفنون الاسلامية » بقلم العالم الفرنسي رنه غروسي الاستاذ في مدرسة اللوفر الباريسية ما يلي :

« لما نهض الاسلام في جنوب آسيا الغربي تبدلت مظاهر التاريخ الشرقي بجملتها . فقد فتح العرب جميع البلاد الايرانية الساسانية والشرق البيزنطي وجميع آسيا الداخلية حتى ابعد حدود ترانسوكسيانيا وضموها جميعاً في تمدن جديد راسخ في كمالاته الخلقية يمتد من ابعد اماكن آسيا الى اسبانيا غرباً والى مراكش وكانت تدعى في ذلك الوقت المغرب الاقصى .

ولكي يتمكن العالم الاسلامي من التحلي باسباب الزينة والبهرجة بما يتناسب مع مظاهر عظمته وفخامة سلطانه لم يتردد البتة في تقبل اكثر عناصر الفنون المتنوعة في بيزنطية وايران الساسانية . ومن هنا نشأت هذه المجموعة الفنية الباهرة العربية الفارسية ، وهي تدهش الناظرين باختلاف مظاهرها التي تعود كلها الى وحدة اصلية محسوسة في كل وجه، وتتشح بعطف الايمان القرآني، وتبقى مع ذلك وارثة كل

احدى روائع النقش العربي : خان اسعد باشا في دمشق

التمدن الميدي في العالم القديم السامي والساساني .

بل هناك ما هو افضل من ذلك . فان الثقافة العربية بعد ما نشرت الاسلام في بلاد فارس اقترنت بثقافتها وتخطت حدود الهند واخذت منذ القرن الثالث عشر، ولا سيما في القرنين السادس عشر والسابع عشر تحت رعاية المغول الكبار، تمزج بمنتهى اللطافة والملاءمة آيات الزينة الفارسية بالزخارف البرهمية وتنشيء من ذلك بدائع الهندسة التي اشتهرت بها خصوصاً دلهي وأغرا .

ولا جدال فوق ذلك في ان الاسلام استطاع ان يشطر آسيا شطرين، وجعل من آسيا الوسطى التي كانت جسراً يفتح ابواب الصين في وجوه الغربيين حاجزاً تحصنت تلك الدولة الكبيرة وراءه، وقد زاد الصين انكماشاً وتقلصاً غزو القبائل التترية لها في جهاتها الشمالية، فان امبراطورية سونغ الوطنية الصينية، بعد ما طردها اولئك الغزاة الى جهات الجنوب عاشت في عزلة هادئة وانصرفت الى الفنون الجميلة. ولما جاء ماركو بولو الكشافة الشهير ودل الامم على الطرق المؤدية الى الصين اخذ الفن الصيني والفن الاسلامي الفارسي والعربي يتبادلان الامثلة واساليب العمل .

لكن فتح طرق الصين في ذلك العهد لم يطل . ففي اواسط القرن الرابع عشر طرد المغول من الصين . فعادت هيئتها الاجتماعية الى الاعتزال وانحصرت عبقريتها الفنية بعد ذلك ضمن حدودها المقفلة .

لكن التبادل الذي سبق ان جرى بينها وبين ارباب الفن الاسلامي بقي خارج السور ولم يلبث ان فعل فعله في الاماكن التي وصل اليها . ولا يزال الى اليوم المدققون في الآثار الاسلامية البديعة يرون الطابع الصيني ظاهراً هنا وهناك لا يخفى على احد .

ولا شك ان هذا الدرس يبقى ناقصاً اذا لم نضف اليه ذكريات المدنيات الخاصة التي قامت في جزر الشرق الاقصى كالملايو وما يليها، من بورنيو وصومترا وجاوى وما اليها . وهي مدنيات قيمة ثمينة وذات فضل عظيم على الفنون الجميلة من اسلامية وغيرها . لانها في اثناء الانقلابات الهائلة والاضطرابات والنكبات الجسيمة عندما كانت جموع الفاتحين الهمجيين تجتاح المدائن العامرة ولا تبقى فيها حجراً على حجر، كانت الفنون والآثار المنقولة تجد لها مهرعاً وملجأ امينا في تلك الجزر النائية يحفظها من الدمار والتلف . ولهذا يجد الانسان حتى الان في جاوى خصوصاً آثاراً باقية من ابدع واتحف ما صنعته انامل الهنود لا يكاد يجد مثلها في الهند نفسها . ولا شك ان هياكل « نارا » حفظت لنا خلال العصور اصول التصوير البوذي وجوهره الاصيل .

وقد دخل الاسلام الى الصين وكوريا واليابان ايضاً، وحمل معه الى



مدخل جامع قايتباي

تلك الانحاء النائية المعتزلة فنونه ومزاياه الخاصة . فلم تلبث ان تقابلت مع الفنون المحلية هناك واخذت واعطت، وانشأت ما لا بد منه عند كل اجتماع من تكييف واستعارة . وكان الاسلام بهذا الصنيع عاملا كبيراً للتبادل الفني الذي جرى بين اليابان والصين والهند والفرس، كما نقل كل ذلك على ايدي العرب الى اوربا، حيث بقي هذا العنصر العربي ثمانية قرون يبعث من الاندلس اشعة العلوم والفنون الى البلدان المجاورة . »

هذا ما قاله العلامة غروسي . فاذا كان روزنبرغ وامثاله من المفتئتين اليوم على العرب ينعون عليهم تضاؤل الفن عندهم، فما هذا بدليل على صحة الافتئات وسداده، بل هو دليل على قلة الوفاء عند من يشرب من البئر ثم يرمي فيها حجراً .

الحركة الفكرية في روسيا السوفيتية

لم ينهض الادب في روسيا السوفيتية نهضة الصناعة فيها ، على ان ذلك لا يعني ان روسيا الحالية تفتقر الى اسماء عظيمة في الادب . فالكسي تولستوي صاحب « بطرس الاول » وميكائيل خولوكوف صاحب « الملحمة القوزاقية » ، وبولغاكوف ، وميكائيل زوختشنكو ، وليونيد ليونوف ، وفلانتين كاتاييف ، وبافلنكو ، وسواهم مهروا المكتبة الروسية بروائع جليلة وان قلت شأناً عن روائع تورغنييف وتولستوي ودوستويفسكي وبوشكين . ويدعي ان المعجبين بروسيا السوفيتية التي لا تبلغ من العمر الا ربع قرن يستطيعون القول بكثير من الحق ان الوقت لم يتوفر لتنمية الثقافة الجديدة في روسيا ، فقد وجه الروس الى التنظيم الاقتصادي والسياسي من الجهد والهم اكثر مما وجهوا الى المسائل الروحية ، وهم على بعض اليقين من ان الثقافة الجديدة ستنمو من تلقائها في الجو الاشتراكي ، سوى ان هذه الثقافة ، لم تحد عن الصراط القديم في مختلف مناحي الفن ، فالحفارون السوفييت ما يزالون يتقيدون بالفن الكورنثي ، والموسيقيون لم يدخلوا على الغنائية القديمة الا فخفخة المناظر ، والمصورون لم يأتوا بأية فكرة جديدة .

اما في الادب فينقسم الكتاب المعاصرون الى اربع فئات ، الاولى ، وهي فئة « ادب البورجوازية الجديدة » تشتمل على مهاجرين قدماء انضموا الى النظام الجديد كالكسي تولستوي واهرنبورغ وميكائيل بولغاكوف . والثانية ، وهي فئة « ادب البورجوازية الصغيرة » تشتمل على بوريس بيلنياك وليونيد ليونوف وقسطنطين فدين ونبكيتين وفلانتين كاتاييف ورومانوف وزوختشنكو والشاعرين كايويف وبسترناك . ولفئة « ادب البورجوازية الصغيرة » هذه جناح ايسر تتألف منه الفئة الثالثة المشتملة على بابل وتيخونوف وايفانوف وسيفولينا واوليشا وماياكوفسكي . وعلى بعض كتاب الفئتين الثانية والثالثة خلعت اسماء « رفاق الطريق » ذلك ان هؤلاء الكتاب قبلوا الاعتراف بالنظام الجديد من غير ان يكونوا شيوعيين وسلكوا « الطريق » مع الكتاب البروليتاريين الذين تتألف منهم الفئة الرابعة وهم غلادكوف وفادييف ولياشكو ولوبيدنسكي والشاعران دميان بدني ونيزغنسكي .

سوى ان التطورات التي حصلت في العشر السنوات الاخيرة ادخلت بعض التعديل على هذا الترتيب فقد اصبح الكسي تولستوي ويدرج في عداد اكبر الكتاب الروس في هذا الزمن — يمثل الادب السوفييتي في المؤتمرات الدولية وقد احتل مكان غوركي فلم يبق اي ناقد يذكره في مصاف ادباء « البورجوازية الجديدة » وما يقال عن الكسي تولستوي يقال عن ليونوف الذي مال كثيراً الى اليسار .

ويدعي ان الادب الروسي المعاصر يستعير معظم مواضيعه الكبرى من مختلف مراحل الثورة فالافكار الاساسية التي تلمس في القصة والشعر والمسرح بروسيا الحالية مستقاة من مقدمات ذلك الانقلاب الخطير ومن مراحله ، من تطوراته الاخيرة ومن نشأة المجتمع الجديد ، من اضطرابات ١٩٠٥ الثورية ومن انقلاب ١٩١٧ ، من احداث الحرب الاهلية ومن وثبة الشيوعية في عهد مشروع الخمس السنوات الاول ، من تمجيد الفضائل الوطنية والعسكرية ومن الاشادة بنجاح « الانشاءات الاشتراكية » كالاقنية والمصانع الكبرى والطيارات التي يتسم بها العهد الستاليني .

ميكائيل زوختشنكو

ولد في بولتافا عام ١٨٩٥ ، وهو في الرعيل الاول من كتاب روسيا المعاصرين . درس الحقوق في جامعة بطرسبرج ، وفي العام ١٩١٥ تطوع في الجيش . وبعد الثورة احترف جميع الحرف فاشتغل نجاراً واسكافاً وشرطياً ومحاسباً ومشخصاً ثم تطوع من جديد ولكن في الجيش الاحمر هذه المرة . وعقب هذه التجارب كلها شرع في الكتابة . وكان ينتسب الى حلقة ادبية تألفت في بتروغراد من الادباء والشعراء ايفانوف وفيدين ونبكيتين وسلونمسكي وسواهم وكان هؤلاء الكتاب يعلنون اولوية الفن واستقلاله عن السياسة مشبعي الروح ثقة بمستقبل بلادهم الديمقراطي ، وكانوا يقولون : « ليس في الاحزاب ما يروي ظمأنا ، فلسنا شيوعيين ولا اشتراكيين ثوريين ولا ملكيين ، بل نحن روسيون وحسب . » وكانوا ينكرون على الفن وظيفته الاجتماعية .

وقد امتاز زوختشنكو بالاقصوصة فهو يجيد اخراج مختلف نواحي الحياة اليومية التي يعيشها المواطنون السوفييت في صفحات قليلة مشبعة بالحياة . ومن اقاصيص زوختشنكو النابضة بالصدق يعرف كيف يعيش الناس في الاتحاد السوفييتي . اما لغة هذا الكاتب فهي اللغة التي تسمع اليوم في شوارع موسكو او لنينغراد ، اللغة الروسية الحية لا لغة الكتب والمتبجحين . ويرجع السبب في رواج مؤلفات زوختشنكو الى ان في روسيا الحالية ملايين من الخلق يشبهون اشخاص قصصه .

ليونيد ليونوف

لم يتجاوز ليونيد ليونوف الثالثة والاربعين ، فقد ولد في موسكو عام ١٨٩٩ ، ولكنه اصدر حتى الان جملة قصص خطيرة منها « التفه » او عناق الارض (حيوان كريه الرائحة) و « السارق » و « سوت » . ويذهب ليونوف في قصصه الاولى الى ان الثورة لم تدخل تبديلا كبيراً على حياة روسيا وانما لم تؤثر في القروي الروسي ولا في البورجوازي الصغير . ففي قصة « التفه » نرينا اخوين احدهما شيوعي يمثل الارادة التنظيمية في الشيوعية ، والاخر يرمز الى المقاومة القروية . ولا يبدو الكاتب مقتنعاً في قصته هذه بان الاخ الاول سينتصر على الاخير .

وفي « السارق » يبدو ليونوف كأنه ينظر متشائماً الى مستقبل الثورة . وتتلخص هذه القصة في ان بلشفياً يدعى فشكين ، بطل الحرب الاهلية ، يتنقل من عثرة الى عثرة حتى يصل الى آخر دركات المجتمع واذ يفقد ايمانه وشعوره يطرد من الحزب . و في « قصة ريفية » يحاول الكاتب ان يثبت ان الحضارة الصناعية لا تبدل الانسان ولا ترقيه . ويقول الكاتب بلسان احد اشخاص قصته : « سيصنعون ادوات يحلبون بها العالم كما تحلب البقرة ، ولكن الحيوان القديم – النفس – سيبقى كما كان منذ بدء الزمان ... » وفي « سوت » و « سرانتشوكي » يساهم ليونوف في ملحمة العمل التي تعاون على وضعها معظم الادباء السوفييت في اثناء مشروع السنوات الخمس . ففي « سوت » يبدو الشيوعيون بمظهر يختلف عنه في « السارق » فهم لا يتعثرون بالمصاعب والالام كالبطل فشكين بل يثيرون حماسة الجماعات ويبنون المصانع ويضبطون مجرى سيل « سوت » الذي سميت القصة باسمه . وفي « سرانتشوكي » نرى الشيوعيين ينشطون في تركستان زراعة القطن ويكافحون الحشرات مكافحة مجدية .

وهكذا بقي ليونيد ليونوف يتغلى من تردده حتى انضم نهائياً الى النظام بايمان صحيح .

فلانتين كاتاييف

ولد فلانتين كاتاييف في اوديسا عام ١٨٩٧ ، وفي العام ١٩١٥ تطوع في الجيش وجرح مرتين . وقد استهل عهده الكتابي بنشر مذكرات عن الحرب الاهلية ، ثم اصدر جملة قصص بينها « الاب » و «راستراتشيكي» التي نقلت الى الفرنسية باسم « اكلوا الضفدع » وفي ذلك الوقت اخذ عليه النقاد السوفييت تناوله المواضيع الرصينة بلهجة التهكم وظهوره بمظهر المتكلم بلسان « صغار البورجوازيين » ، واقدامه على انتقاد الحياة السوفييتية ، وبقاءه في معزل عن البناء « الاشتراكي » . على ان القصص الاخيرة التي اصدرها كاتاييف وفي جملتها « الوقت الى الامام » « وشراع ابيض يظهر من بعيد » تختلف عن الاولى . فقصته « الوقت الى الامام » تدور حول بناء مصانع ضخمة في مانييتوغورسك . والاخرى تصف فصولا من ثورة ١٩٠٥ في اوديسا . وهي قصة جميلة جذابة بطلها متشرد جريء من عائلة عمال يسهل الفرار لاحد بحارة المدرعة العاصية « بوتامكين » فيما كان رجال الشرطة يجدون في اثره .

بافلنكو

في « الحكايات الاسيوية » التي اصدرها بافلنكو عام ١٩٢٩ ، وهي صور عن تركيا الكمالية ، يلمس القارىء تأثير بيير لوتي وكلود فارير . ولد بافلنكو في بطرسبرج عام ١٨٩٩ وفي العام ١٩١٩ عين عضواً في الحزب الشيوعي بعد ان تطوع في الجيش الاحمر . ثم عين ملحقاً للممثلية التجارية السوفييتية في تركيا ، وبقي في منصبه هذا عدة سنوات اكتمل خلالها ذوقه الشرقي . وفي القصة التي اصدرها عن « الشرق الاقصى » عام ١٩٣٦ تصور بافلنكو فصول حرب مقبلة بين الاتحاد السوفييتي واليابان ، ووصف في الوقت نفسه الجهود التي بذلها النظام البلشفي لاستثمار موارد سيبريا الطبيعية . وغيرها من الاعمال الجبارة .

ميخائيل خولوكوف

ولنتكلم اخيراً عن ميكائيل خولوكوف ، اكبر كتاب روسيا اليوم . فقد شبه مؤلفه الخطير « الدون الهادىء » بـ « حرب وسلام » لتولستوي . ومما لا شك فيه ان قصة « الدون الهادىء » تمشي في مستوى اعظم الروائع الادبية .

ولد ميكائيل خولوكوف في العام ١٩٠٥ ، وما كاد يشب عن الطوق حتى نبغ ، ولكنه بقي وفياً لمسقط رأسه فلم يترك اهله المزارعين القوزاق ، فهو يقيم بينهم بعيداً عن موسكو والمحافل الادبية . اصدر في العام ١٩٢٤ ، وهو في التاسعة عشرة من عمره ، « اقاصيص الدون » وفي العام ١٩٣٢ «الارض المحروثة» ولكنه لم يبلغ قمة المجد الا في قصته «الدون الهادىء» .

صدر الجزء الاول من « الدون الهادىء » في العام ١٩٢٨ . ومن العام ١٩٣٠ الى ١٩٣٣ اصدر خولوكوف جزئين آخرين من هذه القصة الواسعة ، ثم اصدر الجزء الرابع بعد ان نشره تباعاً في جريدة «ازفستيا» وفي هذه السلسلة الخالدة يصف الكاتب حياة القوزاق بين ١٩١٢ و١٩١٩ .

الموضوع

ولد القوزاقي بانتلي مليخوف من اب روسي وام تركية . ولما شب زوجه والده من ابنة رجل قوزاقي ، ومنذ ذلك اليوم ما فتىء الدم التركي يمتزج بالدم القوزاقي . ولبانتلي الشيخ المسن ولدان ، بطرس الذي يشبه امه الروسية ، وغريغوري الشبيه بوالده .

يقع غريغوري في هوى الحسناء الكسينيا ، وتنسى الكسينيا ان لها زوجاً في الجندية لشدة هيامها بغريغوري . واذ يعود ستيبان ، زوج المرأة العاشقة ، يضرب زوجته ويهددها بالقتل . ولكي يضع بانتلي ليخوف حداً لعلاقة ابنه غريغوري بزوجة ستيبان يزوجه . ولا يتم الامر حتى يهجر غريغوري عروسه ويهرب بعشيقته الكسينيا واذ يحين وقت الخدمة العسكرية ينسى بانتلي الشيخ سلوك ابنه فيمضي به الى المعسكر ويقدم اليه احسن جياده . وفي الحرب يبلي غريغوري بلاء حسناً ويعود الى قريته ضابطاً معصوب الجبين بغار المجد . على ان الثورة لا تلبث ان تزعزع حياة القوزاق الذين لزموا الولاء للقياصرة . فيحارب غريغوري الحمر بدون ان يتحمس للبيض ، فهو قوزاقي قبل كل شيء لا يرى اية فضيلة في تناحر البيض والحمر .

وقد تناول النقاد السوفييت قصة «الدون الهادىء» بالتقريع فيما يطرون قيمتها من الوجهة الادبية وتساءلوا أيكون خولوكوف كاتباً بروليتاريا ام انه يتكلم بلسان القرويين « المترددين؟ » على ان الجزء الرابع من هذه القصة طمأنهم الى ان المؤلف انضم الى الحزب الشيوعي .

والخلاصة

والخلاصة ان الابداع الادبي يشق طريقه الى تربة صالحة ، والتطورات سريعة في الاتحاد السوفياتي ، ويقيننا ان ادباء روسيا يقولون بلسان تورغنييف : « كلما ادلهم الافق واضطرب المصير لجأت اليك ايتها اللغة الروسية الكريمة الحرة . وانه ليستحيل علي ان لا اؤمن بان لغة مثلك تعطى لغير شعب عظيم ! » ولن يمضي وقت طويل حتى تكون النهضة الادبية في روسيا على قدم المساواة والنهضة الصناعية والعلمية – فنسبة الامية في روسيا القديمة ٨٠-٠٠ بينما اصبحت نسبة المتعلمين في الاتحاد السوفييتي ٨٠-٠٠

ابطال المسرح في التاريخ

كوكلان في «سيرانوده برجراك»

مرّ خمس وسبعون سنـة على مولد الشاعر المسرحي ادمون روستان ، وخمس وعشرون سنة على وفاته . فشاعر « سيرانوده برجراك » عاش خمسين سنة مهر خلالها المسرح الفرنسي بروائع لم يُعرف مثلها منذ فيكتور هيغو . ولانزاع في ان «سيرانوده برجراك» احدثت في العام ١٨٩٧ مثل الدّوي الذي احدثته « هرناني » في العام ١٨٣٠ .

كان ادمون روستان يحب سيرانوده برجراك ويحلم بكتابة مسرحية عنه . واية روح شاعرة تعرف حياة هذا الشاعر البائس ولا تحبه ؟

ولد الشاعر سيرانوده برجراك في احدى مدن البريغور عام ١٦٢٠ من اسرة شريفة اعطت فرنسا عدداً كبيراً من حملة « السيف والوشاح » . ولما بلغ التاسعة عشرة من عمره اشار عليه صديقه الشاعر لوبريه بان ينخرط معه في فرقة الحرس التي يقودها كربون ده كاستل جالو . وكانت هذه الفرقة مؤلفة من اشراف غسكونيين يجيدون فن البراز ولا يترددون في تجريد سيوفهم كلما آذنتهم الحاجة او كلما مس شرفهم بأذى ، فأخذ سيرانو هذه العادة عنهم وسرعان ما ذاع صيته حتى لقبه الغسكونيون بابليس البسالة .

وكان الكردينال ده ريشليو قد حرّم البراز واصدر امراً يعاقب بالموت كل من يبارز ، على ان القضاء لم يجرؤ يوماً ان يعاقب سيرانو الذي اصيب مراراً عديدة بجراح زادت بشاعة وجهه ، وكان يجتله انف وحشي عظيم .

نظم سيرانو روايته التشخيصية « اغريبين » وهو في ميعة العمر ومثلتها فرقة « فندق بورغونيا » .

وكان شذوذه يحمله في معظم الاحيان على توقيع اسمه تارة بهذا الشكل : « ده برجراك » وطوراً « ده سيرانو » وحيناً « ده برجراك سيرانو » واحياناً « ده سيرانو برجراك » او « هرقل ده برجراك ده سيرانو » او بهذين الحرفين « د . س . » وكان الشاعر الفرنسي الهزلي سكارون ، زوج مدام ده مانتنون ، يمقت سيرانوده برجراك لان هذا الاخير كان قد هجاه ونال منه ، فلما كتب روايته الشعرية « دون يافث ارمينيا » المع في احد مقاطعها الى هذا الاختلاف في التوقيع بان وضع في فم دون يافث هذه الابيات التي ينادي بها خادمه زاباتا بسكال : « دون زاباتا بسكال . . . او بسكال زاباتا ، اذ لا فرق بين ان يكون زاباتا في الامام او ان يكون زاباتا في الوراء » .

وكان لسيرانو اخصام من الشعراء الهزليين كسكارون وبوليو ولوريه وداسوسي ، وكان هؤلاء الشعراء يهجونه بقصائد مضحكة فيقوم ويقعد ويتوعدهم تارة بالضرب وطوراً بالهجو . وقد بعث يوماً الى الشاعر لوريه برسالة يقول له فيها : « سأحطم عظامك تحطيماً ! اعلم جيداً ان روحاً خسيساً كروحك لا يستطيع الا ان يكذب وينافق . لا بأس ، ولكن الامر الوحيد الذي اطلبه منك هو ان لا تزقني دفعة واحدة بل شيئاً فشيئاً وعلى مهل حتى يمكنني ان اتكلف عدم الاحساس » . وبلغ به الشذوذ يوماً الى حد انه توعد احد

الاغنياء بالضرب لانه رفض ان يقرض دراهم لصديقه الشاعر داسوسي . وما عتم الامر ان وقعت الواقعة بين داسوسي وسيرانو فتوعده سيرانو بالسيف ، وكتب اليه يقول : « هلا ! وحق الموت ! ارى من الوقاحة ان تبقى في قيد الحياة بعد ان اغظتني ! من تكون انت ؟ استغرب انك لم تزل تأكل وتشرب كأنك لم تمت . . . او كأنك لست من الاموات . ولكنك ستموت غداً او بعد غد ! »

وكثيراً ما كان اصدقاء سيرانو يحاولون ان يقربوه من العظماء ليتقي بهم شر مبغضيه ويأمن مصائب الدهر فيرفض بأنفة قائلا انه لا يطيق العبودية ويفضل الحرية في الفقر على العبودية في الغنى . وكان يحب العزلة فيصرف ساعات طويلة في الغابات والاحراج مستنطقاً اسرار الطبيعة ، متحدثاً الى الشجر ، مصغياً الى اغاني الطيور وفي يوم من ايام ايلول سنة ١٦٥٥ كان سيرانو ماراً تحت نافذة شريف يبغضه فأسقط عليه احد الخدم خشبة اصابته بجرح بليغ في رأسه ما لبث ان توفي على اثره وهو دون السادسة والثلاثين .

***

قلنا ان ادمون روستان كان يحب سيرانو ويحلم بكتابة مسرحية عنه ففي يوم من صيف ١٨٩٦ (كان روستان في الثامنة والعشرين من عمره) فيما الشاعر يروّح عن نفسه بقرب ينبوع كاراوه بمدينة لوشون لقي شاباً من اولئك العشاق المفؤودين ، فاستدرجه الى الاعتراف بحبه ويأسه فقال العاشق :

— لقد كلمتها كثيراً واستحلفتها كثيراً فلم تصغ اليّ .

فقال ادمون روستان : ولكن ، ماذا قلت لها ؟

فقال الشاب : قلت لها اني أحبها .

— ثم ماذا ؟

— ثم . . . كررت ذلك مراراً .

فقال الشاعر : عندما تحبك تكتفي منك بذلك ، اما الآن فهي بحاجة الى شيء آخر ، انها بحاجة الى كلمات كثيرة ، الى عبارات والوان . .

ومنذ تلك الساعة بدأت المدرسة ، فصار العاشق المسكين يتردد كل يوم على الشاعر ويعود محملا اشكالا من لغة الحب . وكان ان اجتمع روستان بالفتاة المعشوقة في احدى النزهات فقالت له :

— لم يكن يخطر ببالي ان اميدي (وكان اسمه اميدي) بهذا المقدار من الشاعرية والعلم .

والواقع ان اميدي لم يكن سوى وعاء فارغ ، على ان الشاعر كان قد اهتدى الى موضوعه . وبعد ايام كان ادمون روستان في مقصورة الممثل العظيم كوكلان يحضر تمثيل مسرحية « ترميدور » فقص على الممثل موضوع « سيرانو » ومنذ ذلك الوقت بدأ العمل واخذت المشاهد تتلو المشاهد ، والاشعار البليغة تلقى على الورق كأنها اشعار عادية وكأن الغد لا يخبىء لها تلك الشهرة التي طبقت الخافقين .

وراجت سوق الحسد وسوق البلاهة ، سوق السفالة وسوق البهتان ، وكل ما يزحف حول الروائع من الكوائح البشرية . وعلى كل هذا كانت تخيم وداعة الشاعر الذي اعطى عبقريته ورؤي له انه لم يعط شيئاً حتى كاد يسقط في يده فارتمى بين ذراعي كوكلان ، قبل عرض المسرحية بربع ساعة صارخاً : « اغفر لي يا صديقي ، فقد زججت بك في مغامرة خاسرة ! » على ان الجمهور الغفير بقي يهتف ويصفق ، يضحك ويبكي حتى الساعة الثانية صباحاً . وكانت اعراف المجد تعطر المسرح وكل يود استنشاقها .

مثلت « سيرانو ده برجراك » اكثر من الف ومئتي مرة ودرت على المؤلف وعلى الممثلين مئات الملايين من الفرنكات . ولسنوات خلت نظمت جريدة « الجورنال » الباريسية استفتاء حول أبطال الادب فجاء « سيرانو » في الدرجة الاولى . و « جان فلجان » (بطل قصة البائسين لفيكتور هوغو) في الدرجة الثانية . و « دارتانيان » (بطل قصة الفرسان الثلاثة لاسكندر دياس) في الدرجة الثالثة .

سألت « الجورنال » قراءها : « اي بطل ادبي احب اليكم من سواه ؟ » فنال سيرانو ده برجراك » ٢٨١٧ صوتاً ، و « جان فلجان » ١٣٣٢ صوتاً ، و « دارتانيان » ١١١٥ صوتاً ، و « فرتر » ٨١٣ صوتاً ، و « فرخ النسر » ٥٥٠ صوتاً ، و « دون كيشوت » ٤٤٩ صوتاً » و « هرناني » ٤٤٧ ، و « اتوس » ٤١٢ ، و « جوسلين » ٤١١ ، و « مونت كريستو » ٣٤٥ ، و (روميو) ٣٥٥ .

وقد عرضت سيرانو في جميع البلدان ونقلت الى جميع اللغات . نقلها المرحوم مصطفى لطفي المنفلوطي الى العربية بعنوان (الشاعر) ولكنه حولها من تشخيصية الى قصصية وتصرف بها .

وبما ان الجميع كانوا يسمعونها بقلوبهم فقد حفظوها عن ظهر قلب . وفي احدى الليالي تراءى لكوكلان ، وكان تعباً لتمثيله دوره ثلاث مرات في اربع وعشرين ساعة ، ان يجتزىء اربعة ابيات من فقرة ، فوقف احد النظارة في وسط القاعة وصرخ بصوت جهوري :

— الاصل ، يا سيد ، الاصل ! .

فابتسم كوكلان العظيم وانحنى قائلا :

— الحق بجانبك يا سيد . وعاد الى الفقرة من اولها بحماسة والهام اكسباه هتافاً استغرق خمس دقائق ! .

أدب السليقة
والشيخ احمد الطرابلسي

بقلم صلاح اللبابيدي

الادب الغريزي ناحية من نواحي الادب لم يبحثها ، بما علمت ، ناقدوه . ولا عرضها مؤرخوه ، الا ان المتقدمين والمتأخرين منهم يكتفون بالاشارة اليه فيقولون : « شاعر مطبوع واديب موهوب . » فاذا طلبت تحديداً للادب عندهم رأيت ان ابن قتيبة يقول : « من اراد ان يكون اديباً فليتفنن في العلوم . » ويقول ابن خلدون في الكلام على علم الادب : « هذا العلم لا موضوع له ينظر في اثبات عوارضه او نفيها ، وانما المقصود منه عند اهل اللسان ثمرته ، وهي الاجادة في فني المنظوم والمنثور ، على اساليب العرب ومناحيهم ، فاذا ارادوا حد هذا الفن قالوا : هو حفظ اشعار العرب واخبارها والاخذ من كل علم بطرف ، يريدون : من علوم اللسان او العلوم الشرعية من حيث متونها فقط ، وهي القرآن والحديث . » فاذا اخذنا من قول ابن خلدون : « ان الادب لا موضوع له وانما المقصود منه الاجادة » محرّفين تحديده للادب ، فنكون قد بلغنا الغاية القصوى في وصف المثل الاعلى منه . فما حاجة الادب للتفنن في العلوم ، ولحفظ اشعار العرب وغيرهم؟ فما عرف شكسبير شيئاً من ذلك ، ولا وقف ابو الطيب على اداب الغرب . وما معنى قولهم : « شاعر مطبوع واديب موهوب وكاتب ملهم » اذا كان تحديد الادب ما تقدم ؟

لقد اعجبني قول بعضهم : « ان الاديب ينظر بعين ويسمع بأذن غير العين التي ينظر بها الناس ، وغير الاذن التي بها يسمعون . » فاذا كانت له هذه العين وكانت له هذه الاذن ، فما ضرّه ان لا يتفنن في العلوم ولا يروي اشعار العرب واخبارهم ؟ فان العالم والراوية احوج الى ذلك منه .

الادب موهوب غير مكسوب ، وليس ادل على قولنا هذا من وجوده قبل جامعاته وكتبه ، وان ابرز نواحيه واحبها للقلوب ماينتجه الاديب من صور للحياة في قالب شعري فصيح او نثر فني صريح او لغة عادية او رواية خيالية لا اثر للعلم ولا للتاريخ فيها .

فاذا سمعت اعرابية هجرها زوجها لانها ولدت له بنتاً ، وصار يأوي الى بيت مجاور لها ، ترقص ابنتها وتنشد :

ما لأبي حمزة لا يأتينا   يظل في البيت الذي يلينا
غضبان ان لا نلد البنينا   تالله ما ذلك في ايدينا
وانما نأخذ ما اعطينا   ونحن كالزرع لزارعينا
نبت ما قد زرعوه فينا

وان زوجها سمع هذه الابيات اتفاقاً ، فطفق ينتهب الخطى نحوها ، حتى ولج عليها الخباء . فقبلها وقبل ابنتها وقال : « ظلمتكما ورب الكعبة » ، قلت معي ان الادب الغريزي خير من الادب العلمي المكتسب . فهل في هذه الابيات التي انشدتها غريزة المرأة المهجورة شيء من العلم واخبار العرب؟ واذا سمعت ابن الرومي يصف صانع الرقاق بقوله :



ما انس لا انس خبازاً مررت به
يدحو الرقاقة وشك اللمح للبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرة
وبين رؤيتها قوراء كالقمر
الا بمقدار ما تنداح دائرة
في صفحة الماء يلقى فيه بالحجر

واذا سمعت بعد ذلك شاعر الرافدين الاستاذ معروف الرصافي يقول :

وكنت كأني اسمع الصمت سارياً
له بين احشاء الفضاء دبيب

علمت ان الاديب ينظر بغير العين التي ينظر بها الناس ، ويسمع بغير الاذن التي بها يسمعون ، وان ليس في هذه الابيات تفنن في العلوم ، وان الاجادة فيها تكفي ان تجعلها صورة من صور الفن الشعري الخالد . ومن ذلك ما رواه الاصمعي قال : رأيت امرأة ترقص طفلا لها وتقول :

احبه حب الشحيح ماله   قد كان ذاق الفقر ثم ناله
اذا اراد بذله بدا له

فصاحبة الاصمعي هذه اوحت لها غريزتها الادبية صورة شعرية تعجز عنها قرائح الشعراء الذين يملأون غرابيلهم ماء ، معجبين بديباجتهم ، فخورين بكلماتهم المغربلة .

ومثل ذلك ما رواه الميداني : « أتي العريان بن الهيثم بغلام سكران . فقال له : من انت ؟ فانشد :

انا ابن الذي لا تنزل الارض قدره
وان نزلت يوماً فسوف تعود
ترى الناس افواجاً الى ضوء ناره
فمنهم قيام عندها وقعود

فظنه ولداً لبعض الاشراف ، فامر بتخليته فلما كشف عنه قيل له انه ابن با قلاّني . »

وهكذا نجد ابن الباقلاني الاديب في غريزته التي جلاها السكر وانطقها يرى في قدر ابيه قدراً ابقى على النار من قدور اشراف العرب الكرماء ، ويجيد تصوير الناس المندفعين الى ضوء ناره بفن ادبي غريزي يخيل للحاكم انه ابن شريف من الاشراف . وقد أحسن ابن عبد ربه اذ تحدث الينا عن الادب في الجزء الرابع من عقده الفريد قال : « واعلم ان من كان مرجعه اغتصاب نظم من تقدمه ، واستضائه بكوكب من سبقه ، وسحب ذيل حلة غيره ، ولم تكن معه اداة تولد له من بنات ذهنه ونتائج فكره الكلام الحزم والمعنى الجزل ، لم يكن من الصناعة في عير ولا نفير ، ولا ورد ولا صدر » .

فما وصل ابن عبد ربه من رأيه عند هذا الحد حتى تداركه منصفاً مصيباً بقوله : « على ان سماع كلام الفصحاء المطبوعين ، ودرس رسائل الشعر من المتقدمين ، هو على كل حال مما يفتق اللسان ويقوي البيان ويحد الذهن ويستمد الطبع ان كانت فيه بقية وهناك خبيّة » فانك لتجد في هذا الاستدراك والتحديد الذي انتهى اليه من قوله « ان كانت فيه بقية وهناك خبيّة » ما يدعم الرأي القائل بالادب الغريزي . فاذا وجدت هذه البقية وكان هناك اثر الخبيّة او غريزة كما نسميها فعندئذ تكون الثقافة ورواية الشعر والاطلاع على مختلف الاداب عوناً على اظهار ما في نفس الاديب . وقد حدثنا صاحب الاغاني ان حماد بن ميسره الراوية انشد الوليد بن يزيد الفين وتسعماية قصيدة للجاهليين ، فامر له بمئة الف درهم . وخلف حماد شعراً كثيراً رواه صاحب الاغاني عند الكلام عنه ، وبعد ذلك كله نجد حماداً راوية وليس بشاعر .

وروى صاحب العقد الفريد ان اعرابياً من بني تميم اتى مجلس ابي حماد في الكوفة وفيه ابو الحسن التار وكان ماهراً في النحو ، فسمعهم يذكرون الرؤاسي والكسائي وابا زيد ، فجعل ينظر بفقه الكلام ولا يفهم التأويل . فقالوا له ما تقول فأجاب : ان كلامكم هذا لا يسد عوزاً مما تتعلمونه به . فقال له ابو الحسن : « ان بهذا تعرف العرب صوابها من خطئها . فقال ثكلت وأثكلت وهل تخطىء العرب؟ فقال بلى . فقال علي اولئك لعنة الله وعلى الذين اعتقدوا مثلك .

وراح ينشدهم قصيدة ذكرها صاحب العقد الفريد منها :

عن الرفع بعض الخفض لا زال حافظا
ونصب وجزم صيغ من سوء رائه
فقلت له هذا كلام جهلته
وذو الجهل يروي الجهل عن نظرائه
فقال بهذا يعرف النحو كله
يرى انني في العجم من نظرائه
فمن ذا الرؤاسي الذي تذكرونه
ومن ذا الكسائي غارق في كسائه
ومن ثالث لم اسمع الدهر باسمه
يسمونه من لؤمه سيبوائه
فكيف يخل القول من كان اهله
ويهدى له من ليس من اوليائه

وكان يسمى هذا الاعرابي صلتان بن عوسجه فاذا قرأت ما رواه صاحب العقد الفريد في الجزء الثاني من شعره وأخباره عرفت انه الشاعر كل الشاعر .

هذا بعض شيء من الادب الغريزي عندنا ، رويته لاحدثكم بعده عن اديب خلق اديباً هو الشيخ احمد الطرابلسي المتوفي في بيروت سنة الف وتسعمائة وثماني وثلاثين غربية . وكان رحمه الله نجاراً يشتغل في سوق من احقر اسواق بيروت القديمة يصلح صناديق من خشب عتيق في حانوته المظلم ، فاذا فرغ من عمله حط على رأسه عمامة دمشقية مزركشة وحمل عصاه بيمينه ونفض عن برديه غبار النشارة وراح يمشي في الارض مرحاً بقامة منتصبة ضاربة في الفضاء وجسم عصي اضناه النصب وضيق ذات اليد ، يجيل لحاظاً كانها ايماض برق في افق مظلم بعيد ، فان مر بك حسبته يمشي في عسكر من الجن لا يلوي على احد كانه مشغول عن العالم بوحي علوي .

أنشدنا مطرب في ليلة سمر شعراً عامياً فاقبلنا عليه باسماعنا نعجب بما يقول ، وقد لاحت لنا منه تباشير شعر غريزي ، تتلألأ فيه صور رائعة الخيال ، ليست من سقط طرازه . حتى اذا فرغ من انشاده سألناه عن صاحبه فقال وقد تمطى معجباً فخوراً : هذا للشيخ احمد الطرابلسي !!

اما وقد عرف السامع الكريم هذه الشخصية الادبية فلينهل من سلسلها ويسمع من سحرها شعراً صافياً لا يضيره انه في لغة عامية . لقد عرفت الشيخ احمد ، النجار الذي يعمل ليل نهار ليسد رمقه ، وهو على ما عرفت من كبرياء وعجب ، فاسمعه ينشدهذه الابيات يهجو بها الدنيا التي لا عمل لها الا ان تحيك الاكفان لابن آدم وحواء وهي أغدر من النساء ، اذا أفنى العمر فيها أفنته وهو حي يرزق ، واذا منّت عليه ألبسته غزلا من اغصان عـارية . ثم يخبرك بعد ذلك انه توسل اليها ببؤسه انتفسح له الطريق ، الا انها لم تفعل ، وانى لها ذلك وهي صماء وعمياء.؟ثم يعود الى الليل مسترحماً والى النهار ساعيا ، فلا يرحمه الليل ولا يسعفه النهار ، كل هـذه الصور الشعرية الرائعة ، كل هذا البؤس، كل هذه المعاني المتزاحمة ، كل حـكاية الدنيا بل كل فلسفة الحياة في مقطوعة صغيرة لا تعدو اربعة ابيات ، فاسمعه يقول ببيانه العامي العذب :

دنيا تحيك لابن آدم وحوا كفان
هي كالنسا ان شاب في هواهايعيش كفان
يعرى من الثوب او يلبس عواري كفان
بالضيق ناشدتهـا او بالمروة بسعي
صما مـا تسمع وعميـا ما تشوف بسعي
بسترحم الليل وبقضي النهـار بسعي
لا الليل يرحم ولا يسعي النهار كفان

واسمع بعد ذلك هذا الشاعر المطبوع كيف يكتم بؤسه عن اللؤماء ويفضل ان تقطع رجله قبل ان تسعى الى احد منهم وان تبتر يده اذا امتدت الى الناس بحاجة ، فيقول في ساعة مـن ساعات بؤسه المؤلم :

مين اخبرك حالتي للندل انا قصها
وان كان تسعى لنحوك ارجلي قصها
او كان يدي تعوزك قطعها اولى

ومما لا ريب فيه ان بؤس هذا الشاعر قد أثر في ادبه تأثيراً واضحاً . فاستمع اليه وقد عركه الدهر وحنكه كيف تساوت عنده جميع مظاهر الحياة ، فسيان الصيف والشتاء ، وسيان طالت يده او قصرت وسيان اذا ولى النهار او طال الليل ، وسيـان هذا العيش في سكره وصحوه ، وكل ذلك ايضاً في بيتين من الشعر يقول فيهما :

تمضي الفصول لادري ان شتا او صحو
كلا ولااعلم اذا وابل هطل او طال
ما اعتب على الباع ان قصر ولا ان طال
ما احزن اذا الليل ولى والنهار ان طال
ما طاب هلعيش عندي ان سكر او صحو

واسمعه بعد ذلك كيف يرثي ولداً من اولاده فيقول انفراق من احبهم كدر صفو عيشي وراحتي ولن يمر السرور بخـاطري بعدهم الى ان يأتيك بمعنى جديد لم يسبقه اليه اديب قبله فيقول : ان حياتهم كانت حيـاتي فمن البديهي ان يكون موتهم موتي ، فيا ليتني لم أعرف الحالين ، متمنياً بذلك عدم وجوده ، لانوجوده اصبح عدماً . وهذا هو الحزن الحقيقي بعينه .

هم كدروا صفو عيشي وراحتي بعدهم (الظرف)
ما مر يوم السرور بخاطري بعدهم (بعد الهم)
يا ريت ما شفت هالدنيا ولا عشت ولا مت

وان للشيخ احمد غير هذا الادب البائس شعراً غزلياً يختلف عما نعرفه من نوعه . فاذا هو حدثك عن محبوبته تمنى عليك اولا ان تردد له اوصافها بنوداً متتابعة ، وبعد ان يستأنس بحديثك عنهـا ويطمئن الى مشاركتك اياه الاعجاب بهايعودالى اخبارك عن قناعته بحبها فهو يقنع بان ترد التحية باقل منها :بنعم ، مهما كان في ذلك من الاستخفاف به والتهكم عليه ، من خفض الصوت واختصار الجواب. يصف لك ظلمها وتمنعها وبخلهـا وتهكمها فيقول : اذا شكوت لهـا عطشاً منعتني وابل عطفهـا ، وعللتـني بالندى ، فيقول :

اوصاف سلمى عطيب مسامعي بندى
سلمت ردت علي بصوت خافت : نعم
ناديت عطشان قالت : ارتوي بالندى

وهكذا نجد ان هذا الاديب الامي الذي جهل اشعار العرب وأخبارهم والذي جهل النحويين جهل ابن وسجة لهم ، ورضي بما في خبية نفسه من مواهب ادبية يذكرنا بصاحب المثل السائر الذي يقول في الصحيفة الثالثة من كتابه : « ان مدار علم البيان على حكم الذوق واللسان الذي هو انفع من ذوق التعاليم ، وان الدربة والادمان اجدى على القارىء نفعاً ، واهدى بصراً وسمعاً ، وانهما يريانه الخبر عيانا ، ويجعلان عسره من القول امكانا ، وكل جارحة منه قلباً ولساناً . » وهكذا نجد كل جارحة في الاديب الملهم قلباً ولساناً .

فمن أنس في نفسه غريزة ادبية فليقطع على الادب عزمهوالا فليقلع عنه ويله بغيره وبغيرنا .

صلاح اللبابيدي

شعر المجانين

بقلم عيسى اسكندر المعلوف
عضو المجمع العلمي في سوريا والمجمع اللغوي في مصر

كلفت بالبحث عن الموضوعات التي لم يتفرغ لها علماؤنا وادباؤنا او انهم لم يستوفوا الكلام فيها فجمعت ذلك في رسائل عديدة وفي (التذكرة المعلوفية) التي بيّضت منها عشرة مجلدات في بحوث مختلفة مما لم يطرقه باحث بتفصيل واف في الادب والتاريخ والاخلاق والعمران والاجتماع والفنون على تطوراتها المختلفة مثل (شعر الخلفاء والملوك والامراء) و (شعر العميان) و (شعر المجانين) و (تذاكر العلماء) في العصور القديمة الى يومنا بتفصيل و (غرائب الحيوانات والنباتات) و (الغوص على اللؤلؤ والاسفنج) و (معارضات الشعراء) و (اقوال المشاهير) عند العرب والاجانب، و (اشعار في الاخلاق والعادات) و (التحيات عند الامم) في اللقاء والوداع و (الموسيقى وآلاتها) و (الكمأة) و (الاعصار والزوبعة) و (المغايرة) و (لغة مالطة) و (نوادر القصائد) و (توارد الافكار) و (العين والقلب) و (العيون عند العرب والافرنج) ومـا قيل فيها و (الورد والقرنفل ورموزهما) و (الوصايا السياسية والادبية) و (التعارف) و (والمكيفات والمشاريب) و (البحوث الفلكية والرياضية) و (الانتقاد) و (الادب الشرقي والغربي) و (الاوائل) و (التاريخ والانساب) و (اوصاف البلدان) و (الادوات على اختلافها) و (المعربات) و (الشعر السياسي) و (بواكير الشعراء) و (الوصايا) و (النوادر) و (النبوغ) و (صناعات المشاهير) و (اعضاء الجسم الصناعية) و (التماثيل) و (اللغات واقسامها ومزاياها) و (الالعاب) على اختلافها مثل الشطرنج ومـا قيل فيه والنرد والورق والمنقلة والسدّر «الموريس» و «المروضات» اي العاب الجمنستيك والسباق والملاكمة والمسايفة «لعب الحكم» وغيرها على اختلافها الى اشباه هذه النوادر والشوارد التي تقصيت البحث عن تاريخها وتسمياتها وانواعها ورموزها مما لا محل لتفصيله الآن بل الاكتفاء بالاشارة اليه يغني اللبيب وهناك دروس في الآداب العربية والاجنبية ومشاهير النوابغ فيها. وتفصيل كثير من الحوادث التاريخية والعلمية والفنية والادبية والعمرانية والاجتماعية عدا ما وضعته في كتب خاصة مما يحتاج اليه الباحثون ويقف عليه المطالعون ومعظمه مقتطف من المخطوطات ونوادر المطبوعات، مستعيناً بالله وحسن النية، طالباً ممن يقف عليه اسبال ذيل المعذرة فان العصمة لله جلّ وعلا.

والآن انتخب من شعر المجانين هذا الانموذج ليقف المطالعون على نوادرهم وشواردهم وآثارهم الفكرية متعجبين من ذكائهم وسرعة خاطرهم في مجالساتهم ومفاوضاتهم، فمنهم:

مجانين دير هزقل ان كلمة هزقل بالزاي هي الصواب في هذه التسمية لا «هرقل» بالراء المهملة كما ذكر ابن عبد ربّه في العقد الفريد — «٣ : ٢٤٥» من طبعة مصر القديمة. وهزقل بالزاي هي تحريف «حزقيل» كما ذكر ياقوت في كتابه «معجم البلدان» نقلاً عن الخالدي. ويعرف في التوراة باسم «حزقيال» وعرف في هذا الدير اربعـة من المجانين الذين كانوا شعراء، وهم:

اولا: الشاعر المجنون الذي رآه المبرد وحادثه بقوله: اجتزت بدير هزقل فقلت لاصحابي: احب النظر اليه فاصعدوا بنا. فدخلنا فرأينا منظراً حسناً. واذا في بعض بيوته كهل مشدود حسن الوجه عليه اثر النعمة فدنونا منه وسلمنا عليـه

فرد علينا السلام وقال : من اين انتم ؟ قلنا من البصرة . قال : فما اقدمكم هذا البلد الغليظ هواؤه ، الثقيل ماؤه ، الجفاة اهله ؟ قلنا : طلب الحديث والادب — قال : حبذا ! تنشدوني او انشدكم ؟ — فقلنا : انشدنا — فقال :

الله يعلم انني كمد لا استطيع ابثّ ما اجد
روحان لي روح تضمنها بلد واخرى حازها بلد
وارى المقيمة ليس ينفعها صبر وليس يضرها جلد
واظن غائبتي كشاهدتي بمكانها تجد الذي اجد

ثم اغمي عليه فتركناه وانصرفنا — فأفاق وصاح بنا — فعدنا اليه وقال : تنشدوني او انشدكم ؟ قلنا : انت انشدنا . قال :

لما اناخوا قبيل الصبح عيسهم وثوّروها فثارت بالهوى الابل
وابرزت من خلال السجف ناظرها ترنو اليّ ودمع العين ينهمل
وودّعت ببنان خلته عنما فقلت : لا حملت رجلاك يا جمل
ويلي من البين ماذا حلّ بي وبها من نازح الوجد حلّ البين فارتحلوا (٢)
اني على العهد لم انقض مودتكم يا ليت شعري بطول العهد ما فعلوا

فقال له فتى من المجان كان معنا : فماتوا — قال له : فأموت انا — قال : مت راشداً فتمطى . وتمدد ومات . فما برحنا حتى دفناه

ثانياً : وقال محمد بن يزيد المبرد : دخلنا دير هزقل فاذا بمجنون بيده حجر وقد تفرق الناس عنه وهو يقول : يا معشر اخواني اسمعوا مني ثم انشأ يقول :

وذي نفس صاعد يئن بلا عائد
يكر على جحفل ويضعف عن واحد

ثالثاً : وحكى الاسدي عن ابيه قال : دخلت دير هزقل فوجدت شابا حسن الهيئة مكبلا بالحديد فقلت له : من الذي أوجب لك هذه الحالة ؟ فأنشد :

نظرت اليها فاستحلت بنظرتي دمي ودمي غالٍ فأرخصه الحب
وغاليت في حبي ولكن رأت دمي رخيصاً فمن هذين داخلها العجب

رابعاً : وقال خالد الكاتب : دخلت الدير يوماً فاذا انا بشاب مغلول مربوط الى سارية فملت اليه وسلمت عليه فقال : من تكون ؟ — قلت : خالد الكاتب — قال : صاحب المقطعات — قلت نعم — قال : انشدني — فانشدته :

ترشفت من شفتيه عقارا وقبلت من خده جلنارا
وعانقت منه قضيباً رطيبا وخصراً نحيلا وبدراً انارا
وعاينت من حسنه في الظلام اذا ما تبدى نهاراً جهارا

فأطرق ثم أنشد :

رب ليل امد من نفس العاشق طولا قطعته بانتحاب
ونعيم الذ من وصل معشوق تبدلته بيوم عتاب

قال خالد : فوالله اني منذ ثلاثين سنة لا احسن اجازتها (٣)

ومن المجانين الذين في غير دير هزقل ثلاثة نذكرهم هنا في هذه العجالة وهم :

---

(٢) يوجد بعد البيت الذي آخره كلمة (فارتحلوا) بيت سقط في هذة الرواية وهو :

يا راحل العيس عرج كي اودعهم يا راحل العيس في ترحالك الاجل

(٣) لم يذكر ياقوت قصته المجانين الثلاثة الاخيرين في « معجم البلدان » ولكن ذكرها غيره

امرؤ القيس العاشق

ذكر ابن داود في كتاب (الزهرة)

ان فتى يقال له (امرؤ القيس) هوى فتاة من حيه . فلما علمت محبته هجرته . فزال عقله وأشرف على التلف وصار ترحمه الناس . فلما بلغها ذلك اتت فأخذت بعضادتي الباب وقالت : كيف تجدك يا امرأ القيس ؟ فقال :

ولما رأتني في السياق تعطفت ... عليّ وعندي من تعطفها شغل
اتت وحياض الموت بيني وبينها ... وجادت بوصل حيث لاينفع الوصل

ثم اغمي عليه فمات

مدرك بن علي الشيباني

اعرابي من بادية البصرة نشأ في بغداد وكان شاعراً عاشقاً وله في حبيبه اشعار اهمها مزدوجة في مائة بيت وبيت من الشعر مطلعها :

من عاشق ناء هواه داني ... ناطق دمع صامت اللسان

وكان حبيبه قد هجره فوسوس مدرك وسل جسمه وذهب عقله واعتزل ملازماً فراشه في بيته .

ومن قوله :

انا في عافية الا من الشوق اليكا
ايها العائد ما بي منك لا يخفى عليكا
لا تعد جسما وعد قلباً رهيناً في يديكا
كيف لا يهلك مرشوق بسهمي مقلتيكا

الفوبرك

* من المشاهير في عقلاء المجانين . قال الابلي : رأيته والصبيان يرمونه بالحجارة فلما رآني قال : اما ترى ما يصنع هؤلاء بي مع ما انا فيه من العشق والجنون ؟ فقلت له : لست مجنوناً قال : بلى والله وبي عشق شديد — قلت : فما انشدت فيه شيئاً — قال بلى وأنشد :

جنون وعشق ذا يروح وذا يغدو ... فهذا له حد وهذا له حد
هما استوطنا جسمي وقلبي كليهما ... فلم يبق لي قلب صحيح ولا جلد
وقد سكنا تحت الحشى وتحالفا ... على مهجتي ان لا يفارقها الجهد
فأي طبيب يستطيع بحيلة ... يعالج من دائين ما منهما بد ؟

وقال يوماً (وقد لقيته في عنقه حبل يقودونه) : يا ابا بكر باذا يعذّب الله عباده ؟ — قلت : بجهنم — فقال صفها — فقلت له — ومن الذي يقدر ان يصف عذاب الله ؟ — فقال : انا والله في عذاب اعظم منه وكشف عن جسم نحيل وعظام بالية وأنشد :

انظر الى ما صير الحب ... لم يبق لي جسم ولا قلب
أنحل جسمي حب من لم يزل ... من شأنه الهجران والعتب
ما كان اغناني عن حب من ... من دونها الاستار والحجب

وقال له ابن الزيات : متى حدث بك العشق ؟ : قال من زمان طويل ، ولكن كنت اكتمه حتى غلب — فقال : انشدني ما قلت فيه فأنشد :

كتمت جنوني وهو في القلب كامن ... فلما استوى والحب أعلنه الحب
وُخلّي والجسم الصحيح يذيبه ... فلما أذاب الجسم ذلّ له القلب
فجسمي نحيل للجنون وللهوى ... فهذا له نهب وهذا له نُهب

عيسى اسكندر المعلوف

فجر النبي

بقلم صلاح الاسير

◆

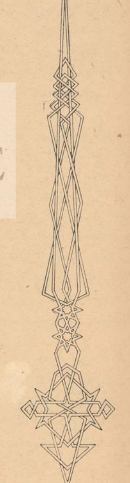
تجلى مولد الهادي وعمت	بشائره البوادي والقصابا
وأسدت للبرية بنت وهب	يداً بيضاء طوقت الرقابا
لقد وضعته وهاجاً منيراً	كما تلد السموات الشهابا
فقام على سماء البيت نوراً	يضيء جبال مكة والنقابا
وضاعت يثرب الفيحاء مسكاً	وفاح القاع ارجاء وطابا
ابا الزهراء قد جاوزت قدري	بمدحك بيد ان لي انتسابا
فما عرف البلاغة ذو بيان	اذا لم يتخذك له كتابا
مدحت المالكين فزدت قدراً	فحين مدحتك اقتدت السحابا

شوقي

●

... كانت القوافل السمراء في ملاعب الجزيرة العربية، تتقلب على الهجير ماوراء ظمأ السراب، وتهل القدر، ووجد الزمن. والغمام المدل يجوب صحو السماء فوق نضرة «الطائف» وزهو «احد» وتيه «بدر» وسماح «مكة» فاذا أقبلت العشية، أحس الحجاز وأحست الدنيا معه حرارة الموعد وبهجة النور ودفء الظلال وطيوب اليقين. وتلفتت النجود الى القرى الحوالم على جنبات المشمس العربي، وعرت الحجر الاسود رعشة من ابراهيم، وغشي البيت الحرام جوّ من الروعة المثقلة باعباء الامجاد البواقي في براح الجاهلية، وأحاط بعبد المطلب رعيل من صحبه ونخبة اهله، على رفوف مسحور من رفارف البيت العتيق في انتظار افترار الهنيهة عن فجر اليتيم.

وعبد المطلب على ضفة الموعد، عليل النفس، يذكر في الغصة عبدالله أحب بنيه اليه، فيعول الفراغ على هذه الارض التي عرفت عبدالله يوم نذره ابوه عبد المطلب قربانا لله، فمنعته قريش وافتداه ابوه بمائة من الابل، ويصمت الرعيل من حوله احتراماً للذكرى وحباً للشيخ الوادع الذي يحمل على خطوط جبهته العالية اروع سطور امجاد هاشم، ولقد سمع عبد المطلب همس اليهود في دروب مكة، بقرب شروق شمس نبي من العرب، فهزته نشوة متسائلة، وأخذته عزة من هاشم، وظل على اصداء الهمس، يشمخ بالصيد من آله.



وفي تلك الاونة، كانت الصحراء تواكب اعراس الاضواء من قصور «بصرى» في ارض الشام الى أحداق آمنة بنت وهب، وظلت آمنة في غور الشعاع، وتحرك طرفة الله في احشائها برفق وهوادة، وادركتها قشعريرة دافئة، ورأت الى مدائن

كسرى كيف تنهار في الرؤيا ، والخيام في رقصة حادية تتهاوى على حيرة الكثبان ، واسارير القفر تضحك بالخضرة والافياء ، وعروق الضحى تندى عربية على الافاق ، وغرة عبدالله البيضاء تضيء في العتمة ، وعذارى الرمال يهجرن الخباء في غمر الفرحة ، والرماح تشك اللواء الاخضر في قرص الشمس ، وآمنة ابداً في جو مترف دفيق ، تحس سرها فوق الناس ، يقيمها هاجس ويقعد بها هاجس ، واترابها من حولها يشرقن باللهفة ، فاذا تحدثت آمنة أتعبها الحديث ، ووهنت منها العزيمة ، ويذهب اترابها الى كل فج ، ينشرن اضوع الحديث ، ولا تلبث آمنة ان تسكن الى اليقظة في غبطة مضنية .

وجاءها نعي عبدالله ، . . . فحز في نفسها مصابها به ، وهو في بهرة ربيعه وابان رجولته ، وهي بعد على ليالي المخاض احوج ما تكون الى زوجها النبيل ، تبثه هموم الحالات التي تسبق طور الامومة في حياة المرأة فيشاركها الاماً عزيزة ويهدي من روعها ويرقب معها فجراً رأيا بشائره منذ حلمت به ، ويسهر على سنيه الاولى كافيا اياه مرارة اليتم ، ولكنها ارادة الرحمن « والضحى والليل اذا سجى ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الاولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ، الم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى ، فأما اليتيم فلا تقهر ، واما السائل فلا تنهر ، واما بنعمة ربك فحدث . » فشارفت آمنة حقيقة ارادة الله ، وعمرت قلبها طمأنينة التسليم وهي في امنع بيوت قريش في هاشم .

ولكن هذه اللوعة عاودتها حارة عميقة ، ليل الاثنين ، لاثنتي عشرة ليلة من شهر ربيع الاول عام الفيل وفي رحب هـذا القلق كانت آمنة تنتقل من فلك الى فلك ، وتلتمع النجوم في سماء الصحراء على الفضة ، وتوشوش الرمال في آذان النسمات العوابر ، وصواحب آمنة تحضرهن الساعة احاديثها المرنة فينتصتن في خشوع مؤمن ، ورهبة غريبة ، ولولا معنى اليتم الذي كانت تحسه آمنة لولدها النبي لكانت يومئذ في بهجة الابد وفرح الدهر . وفجأة تسكت الريح ويرف النبات الربيعي في تلك الليلة قبل اوانه ، وتواكب الصحراء من جديد اعراس الاضواء الرافلة من قصور « بصرى » في ارض الشام الى احداق آمنة بنت وهب ، وتضج الارض بزلزلة ايوان كسرى ، ويهدر البحر بالصلاة ، وتطفى دموع الشوق من عيون الدراري ، ويبارك الله هدأة السحر ، وتنهض آمنة بالمطلب الممهور ، ويرق الهزيع الخضل ، وتنشق الهنيهة الولهى عن فجر النبي .

ضمت البشرى بذراعيها بطحاء مكة ، ومراح الجزيرة ، وأقبل الشيخ الوقور على اضواء الفجر يحمل اليتيم على راحتيه ، يطوف به صحن البيت العتيق ، تاركاً آمنة حرى تهمهم بثل البوح ، وتفكر بوليدها التي ابصرت بتوهج الشعلة في مقلتيه الجميلتين ، وعبير الطمأنينة في سمرته الريقة ، بينا عينا النبي تنفذان الى اعماق الالوان المختلفة ، فتلين القبـاب ، . . ويغضي الوليد ، ويتأمل عبدالمطلب ، وتتمتم شفتاه باسم محمد ، هذا الاسم الذي يبقى على الدهر اغنية الحق .

صلاح الاسير

العناية بالجنين

● بقلم الدكتور حسين سري الدبه

سبق ان حدثتكم عن العنايـــة بالجنين ، فاتيت على علاقة الجنين بالحامل، قائلا ان العناية بها هي العناية به . وقد بدأت ببيان بعض ملاحظات عن تلك العناية، وخصصت منها ما كان شديد التعلق بجسم الام وجسم جنينهـا، كحالة الحامل النفسانية والعصبية وتغذيتها . وحديثي هذا الشهر هو تتمة ذلك الحديث ، وهو يتضمن الملاحظات الاتية :

التنفس ان الحبلى المكلفة بتغذية جسدها وجسد جنينها من دمها مجبرة على تنقية دم الجسمين وخصوصاً جسم الجنين الذي لا يملك من اعضاء التنقية العاملة ما يساعده في شيء بالرغم عن افرازاته المقدرة ، وكل ذلك بواسطة رئتين فقـط ، لان رئتي الجنين لا تبتدأن عملهما الا بعد الولادة . فالحامض الكربونيك المحروق وتوفير كمية الاكسجين اللازمة مطلوبة من رئتي الام ، تلك التي اكثر الادران في دمها نفسه ، لاسباب سبق ذكرهـا في المقال السابق .

فيقتضي لها والحالة هذه زيادة التعرض للهواء النقي ، ولا يقتصر هذا على مدة النهار فقط ، بل تزداد الحاجة اليه في الليل ايضاً . ولهذا يجب ان تغتنم فرصة الوجود في الخـلاء والهواء الطلق معظم النهار، وان تبقى نوافذ غرفتها مفتوحة ليلاونهاراً، وبصورة تضمن تجدد الهواء في كل الفصول مع الاحتفاظ بالتدفئة المعتدلة بنسبة الطقس ، والا تكون عرضة لتسمم جسمها وجسم جنينها بحامض الكربونيك . وعلى الحامل ايضاً تجنب ارتياد الاندية المزدحمة بالناس ودور السينما وما شاكلها من الاماكن التي يفسد هواؤها . وما وجع الرأس والالام المزعجة والشعور بالتعب والكسل والخمول وانحطاط القوى التي تشعر بها الحبلى اثناء الحمل الا صراخ الطبيعة في طلب الدم النقي الذي يتطلب الهواء النقي ايضاً . ومما يساعد على التنفس وانعاش القوى حفظ مسام الجلد مفتوحة بواسطة الاستحمام وخصوصـاً التنشيف العنيف بعده .

الرياضة البدنية لتحسن الدورة الدموية وسعادة الجنين يجب على الحامل ان لا تهمل الرياضة البدنية غير العنيفة ، وان لا تستنكف عن قضاء الواجبات المنزلية كالعادة يومياً ، ما خلا رفع الاثقال وتعليق الستائر ، مع تجنب الاكثار من ركوب الخيل والسيارات ، وخصوصاً في اول شهرين وآخر شهر من الحمل ، وان تعمد الى رفع رجليها عند طلب الاستراحة كي لا تنتفخ المجاري الدموية فيها وتعرضها الى حصول الدوالي المعروفة . ويشترط في هذه الرياضة ان تمارس في الخلاء ، رجاء الحصول على الهواء النقي والاكسجين ، وتشتد الحاجة اليها في حالات القبض وسوء الهضم .

الاسنان ان اسنان الحامل عرضة لالام عصبية بحتة دون مرض موضعي فيها تزول بتحسين حالتها العصبية العامة كما مر بنا . ولا يجب ان يوجه للاسنان علاج خاص او يبادر الى خلعها من اجل ذلك ، كما انها عرضة ايضاً للنخر ولسائر انواع الامراض التي تسبب التهابات وتقرحاً وغيرها من الاسباب التي تؤدي الى وجود سموم يمتصها الدم وتتصل بالجنين ، فتحدث به من الاضرار ما يؤدي الى القضاء على حياته . اما التغيرات التي تحصل وتسبب هذه الازعاجات ، فهي تغيير في تركيب اللعاب الكيماوي ، وتغيير في تركيب المادة الكلسية في الدم ، او نقص في تلك المادة مسبب عن تطلب الجنين كمية وافرة منها لاجل بناء جسمه ، حتى ان الكمية الباقية لا تفي بحاجة جسم الام . ولهذا يجب الاكثار من الاطعمة التي تحتوي المادة الكلسية والفسفورية ، واخصها الحليب والزبدة والحبوب والبيض والبقول المورقة ، مع الاكثار ايضاً من اخذ الاطعمة المحتوية للفيتامين ، تلك المادة التي تعمل ترسيب الكلس من الدم في خلايا الجسم ، وهذه توجـد في زيت كبد الحوت . وفي صفار البيض وفي الزبدة والحليب ايضاً ، او باخذ هذه المادة كمستحضر طبي جاهز في جرعات معروفة ، وبالنتيجة يجب ان تكون الحامل تحت مراقبة طبيب اسنـان ماهر يتصرف بمعالجة اضراسها كما يقتضيه الفن ، غير هياب من اجراء المعالجة اللازمة مهما كانت عنيفة ، وغير متردد بخلع اي ضرس لدى الضرورة لان الخطر من التسمم الذي قد ينتج عن بقائها يفوق الخطر الذي يتعرض له الجنين من خلعهـا ،

والجنين الذي يكون واهي الجسم لدرجة تجعل خلع الضرس خطراً على اسقاطه لا يصلح ان يعيش ولو ولد حياً .

الكليتان ان ادرار البول هو عملية ارتشاح الدم او تصفيته، وتقوم به الكليتان بسهولة تامة في الحالات العادية . امـا في حالة الحمل حيث تكثر افرازات الجنين في دم الحامل وحيث يطرأ بعض التعديل في كيماوية ذلك الدم ، فتضطر الكليتان الى اجهاد قواهما لاتمام عملها الفسيولوجي ، وهذا الاجهاد اما ان تقوما به بدقة وبدون عناء، واما ان تعجزا عن القيام به وتصبحا مريضتين وعاجزتين عن تصفية الدم، فيتحول ما تحتويانه من ادران وسموم الى دم الام فدم الجنين، ويعرضه ذلك الخطر الشديد كما يعرض الحامل له . ولهذا يجب ان يوضع عمل الكليتين تحت المراقبة الشديدة طيلة ايام الحمل . وهذا يتم اولا بمراقبة كمية الادرار ، ففي حالة الصحة يجب ان تدر الكليتان كل يوم من الليتر والربع فما فوق، واذا قل الادرار عن هذا المعدل فيجب ان يطلع الطبيب على ذلك ، وثانياً بفحص البول مرة في كل من الاربعة الاشهر الاولى ومرتين في الاربعة الاشهر الثانية وثلاث مرات في الشهر الاخير . وفي بعض الاحيان لا يكتفي الطبيب بهذه التحاليل فيعمد الى تجربة وظيفة الكليتين باساليب فنية خاصة . وعلى كل يجب على الحامل ان تسير بدقة تامة طبقاً لتعاليم الطبيب بعد تحليل بولها . اما تكرار البول في الشهرين الاخيرين او الشهر الاخير من الحمل فهو ناتج عن ضغط الرحم على المثانة ، ولا عبرة له اذا كان تركيب البول طبيعياً ، ويجدر بالحبلى ان تكثر من شرب الماء لاجل تخفيف كثافة الدم واكثار ادرار البول وغسل مصفاة الكلية .

الامعاء والقبض القبض شكوى الحامل في غالب الاحيان، وله مضار التسمم من حيث اتصاله بدم الحامل ، فدم الجنين . وينتج في اكثرهن اما عن عدم الرياضة البدنية الكافية التي لا تعيرها معظم الحبالى الاهمية اللازمة فترى معظمهن ينزوين في البيوت ويلبسهن الخمول والكسل والجمود ، او عن عدم معرفة اختيار انواع الاطعمة اللازمة، او عن نفسانية الحامل وعصبيتها او عن اسباب مرضية تظهر للطبيب ، وجميعها نفس النتائج الوخيمة على الحامل وعلى الجنين . ولمداراتها يجب الاكثار من الرياضة البدنية كما مر ، وخصوصا التمارين الخاصة بتقوية عضلات البطن والتي يمكن للحامل ان تقوم بها كل صباح في غرفة نومها ، وكل ليلة قبل النوم . ولا تستغرق العملية اكثر من عشر دقائق كل مرة . فتتقوى بذلك عضلات البطن والرحم ، مما يسهل الولادة ايضا : ويجب اختيار المآكل المضادة للقبض كالفاكهة ، خصوصاً المجففة والمحفوظة بماء السكر منها ، ويجب اكل الخبز الكامل ، اي بدون رفع النخالة من الدقيق . ويجب الاكثار من شرب الماء خصوصاً في الصباح . ويجب تحسين حالة عصبية الحامل ونفسانيتها وجلب الابتهاج والشجاعة الى روحها ، فاذا لم تنجح هذه الوسائل كلها في ازالة القبض فيجب الرجوع الى الطبيب لاكتشاف موضع السبب ومداواته . اما الاكثار من اخذ المسهلات في هذه الحالات دون استشارة الطبيب فخطر يجب تجنبه .

اللباس للباس الحامل علاقة مباشرة بالجنين عن طريق الضغط على اعضائه في حالة لبس المشدات والثياب الضيقة التي تعوقه حركته وتؤثر على نموه ، او عن طريق الاحتقان في الاوعية الدموية في الحامل . من اجل هذا يشترط في ألبسة الحامل ان تكون واسعة يلقى ثقلها على كتفيها وليس على سائر اعضاء جسمها ، بحيث لا تعوق حركة التنفس ولا تضايق الدورة الدموية . واذا كان لا بد من مشد البطن لمنع التدلي الناتج عن ثقل الجنين فيجب ان يصنع من القماش الطري فقط دون استعمال مواد قاسية في تركيبه . وان ما تستعمله الحامل من حافظات الصدور تجنبا لتدلي الثديين فهذا يغرق الحلمة ويسطح الثدى ويعوق الحركة الدموية ، وبالتالي يؤثر على ادراره وبروز حلمته عند الرضاع، وهو ما يجب تجنبه . واذا كان لابد من استعماله فيجب ان يخاط بطريقة تضمن رفع النهد دون اي ضغط عليه . وفي كل الاحوال يجب ان تكون الالبسة في الشتاء دافئة ، لان التعرض للبرد له تأثيره الشديد على الجسم ، خصوصاً فيما يختص بجهاز الحامل التناسلي الداخلي . واما الحذاء فيجب ان تكون واسعة لا تعوق الحركة الدموية ، اولا لان الحركة الدموية في الاطراف ضعيفة بصورة اجمالية ، وثانياً لان الاوعية الدموية في رجلي الحامل تتعرض للانتفاخ بسبب ضغط الرحم تفرعات تلك الاوعية بقرب الحوض ، ويجب ان تكون واطئة الكعب لان عاليته تؤثر على السلسلة الفقرية فتسبب فيها انحناء يضغط على البطن ، وهذا بدوره على الرحم فتعوق حركته وتسبب للحامل انزعاجات تؤثر على الجنين بصورة مباشرة، فضلا عن ألم الرأس والظهر الناشيء عن اجهاد العضلات المقاومة ذلك الانحناء . هذا هو مجمل الملاحظات المتعلقة بصحة الجنين وموعدنا باستقباله طفلا في الشهر القادم .

حنين سري الدين

التطور نحو الحرية

بقلم الدكتور كريم عزقول

ما زال العقل البشري ، منذ ان لمعت في افقه لاول مرة فكرة الخير والشر ، يحقر المادة ويحط من شأنها ، ويحث على ازدرائها ، ويصفها بأبشع الاوصاف ويلقي عليها أسف الالقاب . فهي تمثل في نظره عنصر الفساد وعالم الظلمة وحيز الشقاء ، هي الشيء الدني. الذي انحطت الى ملاحقته الروح ، والثوب القذر الذي تدنست بملابسه ، والسجن المطبق الذي القيت فيه . هي صورة الشر في العالم وانعكاسه وتجسده.

ولا تظنن ان هذه الفكرة عن المادة كانت وليدة الاديان والمذاهب الصوفية ، بنتها هذه في اذهان الناس ليتوفر لها البقاء والاستمرار والانتشار . لان هذه الاديان والمذاهب الصوفية نفسها لم تنشأ الا تحت تأثير هذه الفكرة السابقة لها في الوجود ، حتى انه يمكننا القول ان الاديان والمذاهب الصوفية لم تكن سوى تعبير عملي عن تلك الفكرة ، فما السبب يا ترى لوقوف العقل هذا الموقف الغريب من المادة ؟

ان نظرة نلقيها على طبيعة المادة والروح ، نرفقها بنظرة الى نشوء العالم الحي وتطوره تكشف لنا الستار عن حقيقة هذا الامر . اذ يتبين لنا اذ ذاك ان الروح والمادة عدوان قديمان ، ما تصادفا حتى تصادما وكان تصادمهما نضالا عنيفا طويلا قاست فيه الروح من المادة اهوالا لا تزال تعبر عن تألمها منها في تحقير العقل للمادة وازدرائه لها والحط من شأنها .

المادة هي الامتداد المكاني الجامد ، والروح هي الدوام الزماني المتحرك . المادة مقر الجمود والتقيد والعبودية ، والروح حيز الحركة والانطلاق والحرية . وما تاريخ العالم الحي سوى نضال متواصل لقهر الجمود والتقيد والعبودية ، والتخلص منها الى الحركة والانطلاق والحرية .

لقد كانت ساعة رهيبة في تاريخ الكون تلك التي تحركت فيها المادة لاول مرة من تلقاء ذاتها تحت دفعة التيار الحيوي المتسرب اليها ، وارتعش لاول مرة على سطح هذه البسيطة اول عرق اخضر ، اذ ان ذلك الحدث لم يتم الا بعد ان حطمت الروح قيود المادة ، ذلك العنصر الذي لا يتحرك الا اذا اصابته الحركة من خارج ، ولا يقبل شيئا فيه الا بتخلخل اجزائه ، ولا يكبر الا عن طريق الجمع ، ولا يتكاثر الا عن طريق القسمة ، وجعلت منه كائناً يتحرك من تلقاء ذاته ، ويحول الى نفسه بالتغذية ما يدخل فيه ويكبر بالنمو ، ويتكاثر بالتناسل ، كائناً له كيانه الذاتي وحياته الخاصة وعمله المعنوي فكان ذلك اول انتصار احرزته الروح على المادة غب تاريخ التطور الكوني .

الا ان هذا الانتصار لم يكن تاما لمقاومة المادة العنيفة التي توفقت بثقل جمودها وتقيدها وعبوديتها الى تحديد نطاق عمل ذلك الكائن الجديد فكبلته بالارض التي ينبت فيها وابقته في حيز اللااحساس المتربعة هي فيه .

غير ان هذه المقاومة لم تفقد الزرع الحيوي زخمه ، بل اثارته وقوت فيه الرغبة في التحرر من قيود المادة ، فتحول عن تلك الطريق التي قادت به الى النبات وشق له طريقا جديدة وانطلق عليها بنشاط وعزم وقوة زائدة .

وكان للروح انتصار جديد عندما تحرك لاول مرة عن احساس اول حيوان على هذه الارض واخذ ينتقل من مكان الى آخر حسب رغبته ووفق ما يشتهي متمتعاً بما له من الاحساس والادراك والقدرة على الانتقال بكيان اكثر ذاتية ، وبشخصية اكثر استقلالا وبعمل اوسع نطاقاً واشد معنوية من النبات .

بيد ان هذا الانتصار على المادة لم يحقق كل ما كانت تسعى اليه الحياة من حركة وانطلاق وحرية اذ ان هذا الحيوان وان يكن قد انعتق الى حد بعيد من جمود المادة وعبوديتها لم يزل في قبضتها وتحت سيطرتها . فادراكه الجزئي المنفعل لا يزال تحت سلطان المادة ، ورغبته الحسية لا تزال تحت سلطان ادراكه ، وحركاته الانعكاسية لا تزال تحت سلطان رغبته ، فالنعجة مثلا وان تكن على درجة من التطور ارفع من درجة الحيوان الاول الذي نحن بصدده ، اذا ما ابصرت نبتة انطبعت في ذهنها صورة هذه النبتة بعينها مع جميع خصائصها الجزئية فتبعث هذه الصورة في نفسها بالضرورة رغبة في تناولها وهذه الرغبة تدفع باعضائها بالضرورة الى التحرك نحوها ففعل هذا الحيوان اذن وان يكن صادراً عن ادراك وعن قدرة معنوية على التحرك مقيد بالمادة خاضع لتأثيرها خضوعاً لا سبيل الى مقاومته .

وكان هذا الفعل النسبي دافعا للنزوع الحيوي الى تشديد الضغط على المادة ومتابعة سيره الى الامام فانطلق تيار الحياة هذه المرة في وجهتين متباينتين قادت الواحدة منها الى تكوين نوع الحيوان الذي ينتمي اليه النحل وقادت الثانية الى تكوين ذوات الفقرات .

غير ان السير في الوجهة الاولى لم يلبث طويلا حتى توقف لما ابدته المادة من العناد والمقاومة وكل ما نالته الحياة في هذه الطريق خلق اداة للمؤونة معصومة عن الخطأ تخدم الحيوان بدقة واحكام في القيام باعماله الضرورية لحفظ كيانه الفردي وتأمين استمرار نسله وهذه الاداة كما تعلمون « الغريزة » لكن هذه المؤونة الجديدة التي تنشأ من فطرتها كاملة لا تنمو ولا تزيد عند الحيوان الم تخلصه من القيود المادية التي رأيناها تثقل كاهله ولهذا لم يبق امام الحياة سوى تلك الطريق الاخرى لتحقيق هدفها الاسمى .

فسارت فيه باقدام اليائس وبأسه وتوتر قواه فاذا بالحيوانات ذوات الفقرة تتحول وتتطور على ممر الزمن يستحث تيار الحياة فيها شوق ملتهب تتزايد نحوه الحركة والانطلاق والحرية الى ان تمثلت لاول مرة في دماغ اول انسان اول فكرة مجردة .

اين القلم الملهم الذي سيصف لنا وقائع تلك الهنيهة الفريدة واين الريشة المسحورة التي ستعكسها في خطوط والوان ، واين الاصابع المجنونة التي ستعزفها الحانا وانغاما ، انها كانت بالحقيقة اعظم هنيهات الزمن اذ سجل فيها اعظم حادث في تاريخ الكون وأبهر انتصار عرفته الخليقة الا وهو ظهور الحرية على مسرح الوجود الحسي فبتمثل الفكرة المجردة في دماغ الانسان تحرر ادراكه من المادة وأصبح كلياً فاعلا بعد ان كان جزئياً منفعلا وانفتقت الرغبة من سلطان الادراك وتخلصت الحركة من سلطان الرغبة واصبح في امكان هذا الكائن ان يرى شيئاً مرغوباً فيه ولا يريده ، وان يرغبه ولا تتحرك اعضاؤه لتناوله ، اصبح لا يعمل الا للسبب الذي يريد هو ان يعمل من اجله وهكذا أعطته الفكرة المجردة ان لا يكون حد لتزايد معارفه ولا امد لانبساط حقل عمله وان يمسي سيداً على العالم المادي الذي يتصرف فيه كما يشاء ويسخره لاغراضه حسبما يريد .

ولم ينته هنا نضال الروح في سبيل الحرية اذ ما بلغت الحياة هذه الدرجة السامية من تطورها حتى وجدت نفسها امام مشكلة معقدة ما زالت تفسد عليها هذا الانتصار الباهر وتقضي على ثمرة جهودها الجبارة وتتزلزل من على هذه الدرجة السامية التي ارتفعت اليها . ذلك لان التطور الذي ادى الى نشوة العقل والحرية لم يتم الا بالحياة الاجتماعية، لكن التصادم بين ارادات البشر الفردية الذي كان نتيجة طبيعية لحرية كل منهم كان من شأنه ان يهدم الحياة الاجتماعية ويقضي عليها ، فيقضي بالوقت نفسه على الحرية التي لا يمكنها ان تستمر طويلا بدونها .

امام هذا الخطر الفاجع اضطربت الروح في نشوة ظفرها وقلقت ثم استنجدت بالعقل البشري الذي كانت تجلت فيه فأخذ هذا يبحث عن حل يضمن استمرار الحياة الاجتماعية من جهة ويؤمن حرية الافراد من جهة اخرى الى ان توفق الى هذا الحل في الشريعة، فالشريعة بتحديدها علاقات البشر بعضهم مع بعض وبتبيينها لهم واجباتهم وحقوقهم تزيل ذلك التصادم الذي كان من شأنه القضاء على الحياة الاجتماعية وهي لكونها صادرة عن ارادة الافراد العامة الذين سيسنونها ويخضعون لها خضوعهم لارادتهم الخاصة لن تحول بينهم وبين التمتع بحريتهم .

تحت هذه الفكرة وبهذه النية تابعت الحياة سيرها وتطورها في المجتمع البشري غير حاسبة حسابا للفاجعة الكبرى التي ستنزل بالحرية الاجتماعية في كثير من الامم وفي عهود متعددة من التاريخ . اذ ما توزع البشر على سطح المعمورة امماً وشعوبا واستعدوا لقبول الشريعة التي ستصون حياتهم الاجتماعية وتكفل حريتهم حتى استقوى فرد من افراد الامة على المجموع واستقل بالحكم دون سواه وفرض على ابناء امته شريعة تعبر عن ارادته هو، لا عن ارادتهم هم، فخنق هكذا الحرية وابادها وكان ما يسمونه الدكتاتورية .

غير ان الروح لم تيأس في نضالها وما زالت تنفخ في روع البشر وتشد عزائمهم لاجل السعي وراء الحرية الاجتماعية حتى حل ذلك اليوم التاريخي الذي رج فيه في احدى قاعات باريس صوت ذلك الثائر الافرنسي الصارخ برسول الملك « الا اذهب وقل لمولاك اننا هنا بارادة الشعب ولن نخرج الا بقوة الحراب » . وكانت تلك الصرخة اعنف تعبير عن ارادة الامة للتحرر من الاستعباد الدكتاتوري وعن تصميمها الخضوع لشريعة تكون وليدة ارادة تلك الامة نفسها وقد سجل التاريخ في تلك الساعة انتصار الروح النهائي وافتتاح عهد الحرية الذهبي في عهد الديموقراطية . ولا شك ان هذا الانتصار لن يكون تاماً الا عندما تعم الديموقراطية جميع الامم وتطبق في كل منها تطبيقها الكامل فتبلغ الروح اذ ذاك هدفها الاسمى وتحقق ما كانت تنزع اليه منذ الاول من تمام الحركة والانطلاق والحرية .

على ضوء هذه الحقائق يجب ان نفهم معنى هذا النضال العالمي المستعرة نيرانه بين الامم ، هذا النضال الذي يقلق الروح من جديد في نشوة انتصارها ويهزها خوفاً على مصير الحرية الاجتماعية . وعلى ضوء هذه الحقائق ايضا يجب ان نقدر اهمية ذلك الحدث الذي مرّ بامتنا منذ حين الا وهو اقدام ممثلي الديموقراطية في الوقت عينه الذي تفقد امم حريتها وتدوس استقلالها سياسة الفتح والدكتاتورية على الاعتراف بحقنا في الاستقلال والحرية الذي يمكن للروح معه تحقيق هدفها في امتنا كما حققته مراراً في غابر الاجيال .

كريم عزقول

فرنسا الحرة حركة ثورية

بقلم عمر فاخوري

ايما كاتب او باحث يتصدى للكلام على «حقوق الانسان» وعلى المدى الذي اجتازته هذه الحقوق، سواء في مضمار العلم النظري ام في مضمار التطبيق العملي، فلا مندوحة له عن ان يخص الشعب الفرنسي بفصل من اشرق فصول التاريخ، وأروعها وأبقاها على الايام، والا فذلك الكاتب او الباحث بعيد عن احترام نفسه وعن انصاف الحقيقة. ولنقل دفعة واحدة، دون ان نخشى لومة لائم، او تهمة متهم بالاسراف والشطط، ان امرأ هذا شأنه انما «يظلم» عامداً متعمداً الانسان وحقوقه والعلم وكرامته.

لسنا نزعم ان الشعب الفرنسي ابتدع حقوق الانسان المدنية والسياسية من العدم، ولا انه قد ارتجلها بين بكرة وضحاها ارتجالا. فالمدنية الصحيحة لا تعرف هذه الاثرة الجنسية التي تريد النازية الضالة المضلة ان يوصم بها الفكر البشري، اشنع وصمة. وان الحكماء، والفلاسفة والرسل، على اختلاف الاقوام والنحل، نادوا بحقوق الانسان من اقدم ازمنة التاريخ، ودعوا اليها. وليست مراحل التمدن الانساني سوى خطى ضيقة تارة وتارة واسعة، مترددة طوراً وطوراً ثابتة، نحو اقرار هذه الحقوق في المجتمع، باقرب ما يمكن الى الكمال، واكثر ما يمكن من الشمول، كأن البشرية تسمو الى مثلها العليا في سلم — لولبية، اجل — لكنها سلم ذاهبة صعداً، على كل حال.

اقل ما يقضي الانصاف ان يقال ويجهر به، هو ان الشعب الفرنسي كان سباقاً الى اعلان حقوق الانسان السياسية والمدنية بمدلولها الحديث، في وجه العالم قاطبة، سباقاً الى تأييدها ونصرتها في جهاد تقطر منه صحائف التاريخ دماً — دم شهدائه وابطاله.

لقد سبقت الثورة الفرنسية الكبرى وتقدمتها زمناً، ثورات في بلاد اخرى، لكن لم يكن لاحدى هذه الثورات المزية العالمية الانسانية التي اتسمت بها ثورة ١٧٨٩ وماتلاها. فالى الامة الفرنسية بالدرجة الاولى يرجع الفضل في ان حقوق الانسان المدنية والسياسية قد داخلت الضمير الانساني حتى اصبحت جزءاً متمما له، عريقاً فيه، وجاوزت طور الاوضاع السياسية والحكومية كي تصبح اسلوب تفكير، ونهج حياة، للافراد والامم على السواء.

لنضرب مثلا ثورة ١٨٤٨. في تلك السنة ثار الشعب الفرنسي على ملكه لويس فيليب وأعلن جمهوريته الثانية، فماذا كان؟ هل ظل هذا الحدث محصوراً اثره، مقصورة دلالته، في فرنسة وعلى الشعب الفرنسي؟ لا، لقد كانت اشارة انذار ساطعة شهدتها اوربة من أقصاها الى اقصاها، اشارة انذار الى الشعوب جميعاً. لقد علمت اوربة يومذاك ان المسألة ليست تبديل نظام حكومي بنظام آخر، ولا الاستغناء عن خدمات اسرة ملكية باسرة اخرى، وانما هو استئناف السير بالثورة الفرنسية الكبرى من الموضع الذي اوقفتها الرجعية فيه، حتى تبلغ مبادىء الثورة غايتها، لا في فرنسة وحدها، بل بين الشعوب الاوربية وشعوب العالم ايضاً. في ذلك اليوم اصبح تحرير الشعوب المغلوبة على امرها، وتحرير الافراد في ظهراني تلك الشعوب، شيئاً واحداً، بعد ان كانا شيئين مختلفين. بهذا قضى الثائر الباريسي الذي اقتلع حجارة شوارعه، كي يتسلح بها في نضاله الدامي لنصرة حقوق الفرنسي في فرنسة، وحقوق الانسان في العالم. ورحم الله اناتول فرانس القائل: «ان على باريس مهمة، ومهمتها ان تعلم الدنيا. فان من حجارة ارض باريس التي طالما ثارت من مواضعها لنصرة العدل والحرية تفجرت الحقائق المعزية المنقذة.» ولكن يوسعنا ان نطلق كلمة اناتول فرانس البليغة على ثورات ١٧٨٩ و١٨٣٠ و ١٨٤٨ و ١٨٧١ على السواء. حلقات مفرغة من سلسلة ذهب.

ان الشعب الفرنسي شعب ثوري باوسع معاني الكلمة واسماها. شعب «تقدمي». وكأن هذا الشعب يمضه ويحز في نفسه، عصراً بعد عصر وجيلا اثر جيل، ان يرى البشرية في سياق تطورها الفكري الاجتماعي السياسي، تتسكع في مكانها، تحرك قدميها دون ان تخطو خطوة. فهذا الشعب يندفع ويدفع العالم معه بعنف، الى الامام.. ان الشعب الفرنسي يحمل على كاهله اعظم تراث ثوري عرفه التاريخ.

واذا ما ذكر هذا التاريخ ثورات ١٧٨٩ و ١٨٣٠ و ١٨٤٨ و ١٨٧١ فلن يجد بداً من ان يذكر ايضاً ثورة الجنرال ده غول والفرنسيين الاحرار على الرجعية اينما ثقفت، وباي مظهر ظهرت، سواء في فرنسا نفسها ام في العالم، اعلاناً لحقوق الانسان منفرداً ومجتمعاً. وقد لا تكون هذه الحركة الفرنسية الحرة، في تراث فرنسة التقدمي الانساني، آخر حلقات السلسلة. فان من الشعوب من يفرض عليه التاريخ ضروباً من المهام، لا مناص له عن انجازها.

عمر فاخوري

بيروت تحت الضرب

ذكريات خطيبة مطوبة

١٩١٢ - ١٩٤٢

بقلم حليم دموس

... وكان الناس في « ساحة البرج » والمرفأ وفي كل مكان ، يسيرون الى اعمالهم مبكرين ، كأنهم اسراب نحل تحوم هنا وهناك حول خلاياها .

وكنت في المدرسة العلمانية اتحدث وبعض الزملاء الى الرئيس (ديشان) يوم سرت اشاعة في المدينة خلاصتها ان حادثاً فجائياً سيهز البلد من جهة البحر لاسباب دولية، يعرفها جيداً رجال الاوساط السياسية ..

وجاء الاستاذ عساف الكفوري وبعض اساتذة الصفوف العربية ودخلوا على الرئيس ايضاً واكدوا له الخبر .

وكان من عادتي بعد خروجي من المدرسة الواقعة قرب (تباريس) في حي الدحديله ان اتوجه تدريباً للخاطر الى اعلى محل في حي (الاشرفية) على مقربة من حلووز الماء فامرّ بجانب مدرسة (زهرة الاحسان)صعداً الى رابية مرتفعة هناك تشرف على مناظر طبيعية ساحرة لم تتفتح العين على اجمل منها .

وكنت احياناً اكمل سيري الى جهة معامل «السيوفي» فأقف في محل عال كأنني في طيارة .

وهناك اسرح الطرف يمناً ويساراً في تلك المشاهد فأستعرض امامي المنازل والبساتين والحدائق ، والبر والبحر ، وجسر بيروت ، والساحل ، وقرى بيروت المعلقة كأنها اوكار طيور .

ولم تكن شوارع بيروت يومئذ على طرازها الحديث وهندستها العصرية اليوم بل كانت مجموعة ازقة ضيقة ، واقبية رطبة ، ومداخل قديمة ، ودهاليز قذرة ، ولا سيما جهة شارع « فوش » اليوم المؤدية الى المرفأ فقد كانت تنبعث منها روائح كريهة تضيق منها الصدور فضلا عن ممرات ومسالك متعرجة مظلمة يدخلها الانسان وقلبه يخفق هلعاً وهو عرضة لجرائم فتاكة او لمدية شقي اثيم او اعتداء مفاجيء .

وما هي الا كارتدادة الطرف حتى شاهدت حركة غير عادية في مرفأ بيروت، كأن حريقاً مداهماً ايقظ الناس فذعروا، او كأن جماعة من البحارة تصطدم وتقتتل على الرصيف بين المصرف العثماني ومخازن اوروزدي باك ومحطة سكة الحديد ، وما حولها من مصارف ومخازن وفنادق ومنازل . وظهرت فجأة دارعتان ايطاليتان كأنهما توجهان انذاراً الى بعض قطع صغيرة من السفن راسية في مدخل الميناء . وسمعت صوتا من جهة مصب نهر بيروت كأنه هزيم رعد انصب على المرفأ ، فدك بارجة بخارية فيه اسمها (عون الله) فارتجت جوانب المدينة ، وتراقص الزجاج منهاراً من نوافذه وابوابه .

ثم سمعت اصواتاً بشرية تتعالى في الفضاء ، من رجال واطفال ونساء لعدم توقعهم مثل هذا الحادث الغريب في بابه . فتركت مكاني مهرولا الى جهة « ساحة البرج » كأنني المح بعين فكري صورة يوم الحشر، او ارى ملحمة مؤلمة تفتت الاكباد وتلين قلب الجماد .

فهناك عربات صاعدة بسرعة الريح الى جهة الجبل، وهناك عويل نساء يحملن اولادهن الى امكنة مجهولة ، ومرت من امامي فجأة امرأة مذعورة تلطم على صدرها صارخة ، وقد بلغها ان ولدها المستخدم في المرفأ ، ذهب ضحية شظية من شظايا الاسطول ..

ولمحت فراناً حاسراً عن ذراعيه يحمل العجين بيديه، ينقله الى بيته ليصعد به الى احد مصايف لبنان وقد قيل له ان الضحايا نحو المئة ..

ورأيت محامياً يحمل اوراقه والى جانبه تاجر كان معه في السراي، فأجلا الدعوة الى ان تنقشع هذه الغمامة . وسمعت « مختاراً » يقول ان اسراً عديدة عزمت على النوم خارج بيوتها تحت اشجار البرتقال والتوت على طريق فرن الشباك وجل الديب وانطلياس وعاليه وبيت مري وضواحيها .

وشاهدت فريقاً كبيراً من حملة الاقلام وقد توجهوا الى

خارج بيروت ، وبعضهم اعتصموا في اماكنهم ، وفي طليعتهم الشيخ عبدالله البستاني ، فقد ظل في مكتبة سليم نصر . اما الشيخ اسكندر العازار فكان يكتب مقالة (من حواضر البيت) في ادارة جريدة (البرق) فخرج بسرعة البرق مع الاخطل الصغير وبعض الرفاق يطلبون النجاة من الخطر المحدق .

وشوهد الاستاذ جرجي عطيه خارجاً من ادارة جريدته (المراقب) يقصد سوق الغرب ، والاستاذ امين الغريب صاحب (الحارس) يقصد مسقط رأسه « الدامور » .

وهكذا بقية الزملاء والاساتذة فقد هجروا مطابعهم ومدارسهم واعمالهم وفروا الى جهات آمنة .

وما كدت اصل الى « ساحة البرج » حتى اصطدم كتفي فجأة بكتف السيد انيس الخوري صاحب مجلة (النفائس) وهو مهرول يقصد بيته في الحي السرسقي فالتفت اليّ وهو جاحظ العينين رعباً وهلعاً ، وطلب مني بالحاح ان انثني راجعاً وان اتبعه الى البيت لامر ضروري لا يمكن تأجيله .

وكان لصاحبنا مكتبة ومطبعة ومجلة في الشارع المؤدي الى « النورية » .

اما مجلته فقد صدرت شهرية في سنتها الاولى وكان رئيس تحريرها كامل بك خميه (محافظ بيروت السابق) ثم حولها في سنتها الثانية الى مجلة اسبوعية روائية بقلم الشاعر الناثر المرحوم طانيوس عبده ، وكانت تصدر بانتظام ، ومثلها مجلة « الخليل » للاستاذ خليل كسيب (الصحافي المتقاعد والوزير السابق) .

وكان المرحوم طانيوس عبده قد توجه في ذلك الاسبوع الى مصر لقضية خاصة تتعلق بروايته المشهورة (روكامبول) لاعادة طبعها في وادي النيل . ولا سبيل لصاحب النفائس ان يتصل به وفي نيته اصدار رواية عن ضرب بيروت . .

فسار بي الى بيته في تلك الساعة الرهيبة ، واعد لي مكتبة واوراقاً واقلاماً ودواة وعهد الي بانشاء تلك الرواية ، فقمت في خلال ٢٤ ساعة وصدرت في ذلك الاسبوع باسم (فاجعة بيروت) ووقعت اسمي هكذا ح . د .

***

دونت ذلك في مفكراتي التي عثرت عليها بين اوراق قديمة مطوية احتفظ بها في احدى زوايا مكتبي . وكم في الزوايا من خبايا . . .

ولقد كان هذا منذ ثلاثين سنة اي في ٢٤ شباط من عام ١٩١٢

ولا ازال منذ ذلك العهد الى اليوم اتمثل تلك الساعة الرهيبة واردد ابياتاً كافية من قصيدة رقيقة مؤثرة لشوقي امير الشعراء قالها على اثر ضرب الاسطول الايطالي لمدينة بيروت ، مطلعها .

يا رب امرك في الممالك نافذ
والحكم حكمك في الدم المسفوك

الى ان يقول مشيراً الى بيروت ولبنان وسوريا :

ما كنت يوماً للقنابل موضعاً
ولو انها من عسجد مسبوك

بيروت يا راح النزيل وانسه
يمضي الزمان عليّ ، لا اسلوك

الحسن لفظ في المدائن كلها
ووجدته لفظاً ومعنى فيك

ان يجهلوك فان امك سوريا
والابلق الفرد الاشمّ ابوك

سالت دماء فيك حول مساجد
وكنائس ومدارس وبنوك !.

***

ولما كان صاحب السمو الملكي الامير محمد علي باشا ولي عهد المملكة المصرية حالياً اول من تبرع عن مصر باعانة مالية كبرى قدمت يومئذ لآل المنكوبين من جرحى وقتلى فقد اشار شوقي الى ذلك في ختام قصيدته حيث قال يرحمه الله :

لك في ربى النيل المبارك جيرة
لو يقدرون بدمعهم غسلوك

يكفيك برءاً للجراح ومرهماً
ان الامير (محمداً) يأسوك

لو يستطيع كرام مصر كرامة
(لمحمد) بقلوبهم ضمدوك

هو في ابتناء المجد صورة جده
اذكرت (ابراهيم) في ناديك

***

وان في ذكرى (ابراهيم) شبل ذلك الاسد العلوي مؤسس المملكة المصرية لاجمل وابلغ اشارة شعرية لطيفة تتناجى فيها الارواح بين صنين والاهرام وتظل على تراخي الايام والاعوام اقوى صلة روحية بين مصر ولبنان والشام .

٢٤ شباط ١٩٤٢ — حليم دموس

طبيب العائلة

في حديثنا الاخير تكلمنا على واجبات طبيب العائلة فوفينا الواجب الثاني حقه وهو فحص الافراد في حالة الصحة . والان انتقل الى الواجب الثالث وهو الارشاد الجنسي :

ان يقظة الشعور الجنسي واشتعال جذوة الميول الطبيعية في اجسام اليافعين اليانعة كثيراً ما تجمح بهم الى مهاوي الرذيلة او الى جحيم الامراض او الى استحكام العادة الخبيثة . وبين استحياء الفتيان وترق الشبيبة وغفلة الوالدين او جهلهم تذهب الضحايا البريئة ويقف الطب عاجزاً في كثير من المرات عن استدراك هفوة صغيرة سببها الجهل او الاهمال .

فطبيب العائلة والحالة هذه هو المرجع الوحيد والمسؤول الاول عن ارشاد اولئك الاحداث الى اعراض هذه السن ونتائجها وكيفية اتقاء الضر منها معتمدا في كل ذلك على ما برأسه من حكمة وعلم ودراية ، وما بقلبه من عطف ومحبة وحنو . واذا قدر لاحدهم الانحدار في احد المزالق فعليه ان ينتشله بيده الجبارة قبل استفحال الامر وفوات الفرصة وحلول الندم . وتشتد الحاجة الى هذا النوع من النصائح في بلاد كبلادنا فقيرة جداً في هذه الناحية من نواحي التأليف والتربية . فلا المدرسة ولا الام ولا المؤلفون يعنون بتعميم هذا النوع من الارشاد بين ناشئة البلاد بالرغم من وفرة الكتب التي تقع بين ايدي الناشئة والتي تضم صفحاتها منتهى الغواية والتضليل وتحويل الافكار الى السيء من السبل .

وتطور فسيولوجية الجنس في هذه السن لا تقتصر على الوجهة التناسلية فحسب ، بل تتعداها الى مواطن الروية والتفكير وسائر نواحي القوى العقلية والعصبية الكائنة في الانسان ، لما لذلك من صلة بافرازات الغدد الداخلية ووظائفها المتنوعة التي وصل الى فهمها الطب في مراحله الاخيرة . وكثير من الفتيان والفتيات يرسمون في هذه السن خطط الحياة المستقبلة سواء اكانت اجتماعية ام عملية . وعلى هذه الخطط الواهية المرتكزة على عدم اتزان في هذه القوى تقوم سيرتهم التي كثيرا ما تكون مشبعة بالخيبة والفشل ، ولا سيما اذا اتفق ان الوالدين المفروض فيهم السيطرة على مستقبل بنيهم قد اصبحوا عاجزين عن فرض ارادتهم عليهم في تلك السن، وكثيرا ما يجرع الشبان الى اطبائهم بملء الطمأنينة شاكين لهم ما لا يجرؤون على شكواه الى الوالدين ، مستأنسين بما يبديه نحوهم هؤلاء من عطف وحب مشبع بالنصائح الحكيمة التي تحول مجرى حياتهم وتؤدي بهم الى مواطن الفلاح والراحة والسعادة . واذا ملك الاحداث الجرأة الكافية واعادوا على مسمع اطبائهم ما يدور على السنة عشرائهم من الاراء الصحية المتعلقة في هذه السن وعن العلاقات الجنسية وعن الامراض السرية وعن كل ما يدخل في نطاق هذا الموضوع لتمكن هؤلاء الاطباء من تمحيص الحقيقة وبيان الفاسد او الصحيح منها ومحو كل ما يمكن ان توسم به تلك الادمغة اللدنة من اوهام وفساد وتضليل . والذي يشجع الفتيان على الافضاء بكل ذلك الى اطبائهم هو الثقة المكتسبة من احتكاكهم بهم وشعورهم بما يكنون نحوهم من محبة واخلاص .

وقد يتدخل طبيب العائلة بما له من صلاحية ودالة في تأخير زواج ، او منعه اذا رأى انه يقوم دون ذلك حوائل صحية دون ان يكون هنالك ما يسيء الى السمعة او يسيء الى الاخرين او يتنافى ودستور الطب . وفي حال وقوع زواج غير صحي يمكنه وقف جني ثماره الفاسدة بالنصح والارشاد، ومثل هذا الزواج كثير الحصول في كل بلد لا تسهر حكومته على صحة الزواج وسلامة النسل بل تكتفي بالتصريح الديني تاركة الازواج والعائلات يحصدون ثمار اهمالها وغفلتها . فكم من الضحايا البريئة تقدم على مذبح الزواج المقدس ، وكم من الحملان البيضاء تنحر على فراش عرسها .

وكم من العذارى السعيدات اللواتي يبتدىء تاريخ تعاستهن وآلامهن في مساء ذلك اليوم الذي ابتسم صباحه بشعاع الامل والرجاء . وكم من الفتيات النضرات الممتلئات حياة ونشاطاً منين بالخيبة والفشل بعد ان تسربت الى دمائهن النقية جيوش الجراثيم القتالة من امير احلامهن ومنتهى آمالهن منذ الاجتماع الزوجي الاول . وكم من العرائس اللواتي يحاكين زنابق الحقول بجمالهن الحالمات بالحياة العائلية المثمرة يفاجأن بدبيب السموم القتالة في احشائهن عوضاً عن اختلاج الجنين البريء المنتظر . وكم من القبلات المعسولة التي تتضمن ، عوضاً عن عربون الولاء والوفاء ، رسل الامراض والاسقام . وكم من الانفاس التي كان ينشد فيها الطهر والصفاء تنقلب الى بؤرة فساد وشقاء . . كل ذلك والشرائع تحمي الزواج وتقدسه ولا تجرؤ على تدارك ضرره او فصم عراه ، ودستور الطب لا يجيز التدخل غير المشروع في مصالح الخلق ، او اباحة اسرار المهنة ، ولو كان من وراء ذلك الكتمان ، ضرر على المجتمع وتهديد للنسل . فاذا لم يمكن تحويل الشرائع الدينية المقدسة الى تدارك هذا الخطأ الفاحش باجبار الخطيبين على التزود بالشهادات الصحية المثبتة براءتهم من الامراض التي تقف دون الزواج ، واذا كانت الحكومات تلهو بسن شرائع الحرب والتدمير فعلى الاقل يجب الاعتماد على طبيب العائلة الذي يقدر على ان يخفف نوعا ما من هول العاهات الاجتماعية التي نسمع صداها كل يوم في الاندية والمجتمعات .

طبيب المجلة

الاحداث السياسية والحربية في شهر

اتسم شهر اذار الفائت بجملة احداث ديبلوماسية وعسكرية اهمها قبول القسم الاكبر من زعماء الهند التعاون المطلق مع الحلفاء في الحرب الحاضرة. فقدانتدبت الحكومة البريطانية السر ستافورد كريبس لمباحثة كبار الشخصيات الهندية ولا يزال المندوب البريطاني يواصل مباحثاته وقد تستمر هذه المباحثات الى منتصف شهر نيسان . وترمي العروض البريطانية الى ضمان اتحاد الهند واستقلالها، وهي تعطي الاتحاد الهندي مطلق الحرية في البقاء ضمن نطاق المجموع البريطاني او الخروج منه، على ان الدفاع عن الهند لا يمكن وضعه بين ايدي الهنود ولو اجمعت الاحزاب على طلب هذا الامر، ويتوقف اعتراف انكلترا بالدستور الهندي على توقيع المعاهدة من قبل الحكومة البريطانية والبعثة السياسية المعهود اليها بوضع صيغة الدستور". اما المعاهدة فتتناول جميع المسائل المتعلقة بنقل تبعات انكلترا الى الهند وحماية الاقليات الجنسية والدينية وفقاً للتعهدات البريطانية . وللحكومة البريطانية ان تحتفظ طول مدة الحرب بتبعة المراقبة على الدفاع عن الهند . ولكن تنظيم الموارد العسكرية والمادية ينتقل الى حكومة الهند نفسها . وصفوة القول ان الامتيازات البريطانية على جانب كبير من الاتساع بدليل انها تعترف للهند بحق الاستقلال المطلق .

بين فرنسا الحرة والولايات المتحدة وفي جملة الاحداث الديبلوماسية الخطيرة التي تخللت الشهر الفائت اتفاق عقد بين حكومة الولايات المتحدة والاميرال دارجانليو، المفوض السامي للقوات الفرنسية الحرة في الباسيفيك. ويلخص هذا الاتفاق في تأكيد الحكومة الاميركانية ان سياستها فيما يختص بفرنسا والممتلكات الفرنسية قائمة على صيانة سلامة فرنسا والامبراطورية الفرنسية وارجاع الاستقلال الفرنسي التام واستقلال جميع الاراضي الفرنسية في المستقبل . وينص هذا الاتفاق ايضاً على ان حكومة الولايات المتحدة لن تفاوض الا السلطات الفرنسية الحرة في كل ما يختص بالممتلكات الفرنسية الواقعة في منطقة الباسيفيك لان هذه الممتلكات واقعة بالفعل تحت اشراف الجمعية الوطنية الفرنسية المنعقدة في لندن، وان سلطات الولايات المتحدة لن تتعاون الا مع السلطات المشار اليها في الدفاع عن هذه الجزر :

في الميدان الروسي امافي الميادين الحربية فالجيوش الروسية لا تزال ماضية في الهجوم والتقدم. وقد احتلت خلال الشهر المنصرم عدة مدن واكملت تطويق خركوف واحتلت شوديغو وكريفنيو ويوكنوف وتكاد تقضي على الجيش الالماني السادس عشر المطوق في ستارايا روسا . وقد كان العالم ينتظر حملة الربيع التي كثيراً ما هدد بها الالمان، سوى ان السلطات الالمانية المأذون لها تصرح بان هجوم الربيع لن يبدأ قبل نهاية نيسان او نوار . ذلك ان الريخ لم يستطع طوال اشهر الشتاء تنظيم جيشه لهجوم الربيع . ويقول الخبيرون انّ المانيا انزلت الى الميدان في معركة الشتاء مقداراً كبيراً من القوات الاحتياطية كان معداً لحملة الربيع وانها فقدت اكثر من نصف عددها . ولا بد لهتلر من هدنة موقتة ليتمكن من تهيئة الهجوم المقبل . واهم ما يشغل القيادة الالمانية في الاونة الحاضرة حشد فرق عديدة في البلدان الاوروبية لمقاتلة الروس في الحملة القادمة. ومعلوم ان هتلر طالب من بلدان اوربا الوسطى بذل جهد اكبر لمساعدته على اعداد حملته، ولكن هذه البلدان لم تلب طلبه بعد. وتفيد المصادر الحيادية ان الاستعداد الالماني يواصل في مناطق الجبهة الروسية. اما الاشاعات الرائجة حول اعادة بعض القواد المفصولين فيصعب اثباتها . ومهما يكن فتنظيم القيادة الالمانية — اعاد فون بروشتيش وسواه الى الميدان ام لا — من الامور الراهنة، كما انه من الراهن حشد وحدات مصفحة في المناطق القريبة من البترول، وصفوة القول ان حملة الربيع او الصيف تبدو على غير ما كانت تؤمله القيادة الالمانية. وقد تطلع علينا الاشهر المقبلة بمفاجآت لم تكن بالحسبان.

في الشرق الاقصى واما في جبهة الباسيفيك فقد اتسم النشاط الياباني ببعض التوقف، ويبدو ان اليابانيين يصلون الى خاتمة نجاحهم. وقد صرح الجنرال بريت، قائد طيران الحلفاء تحت قيادة الجنرال ماك ارثور، بأن العدو سيقهر عما قريب وتسترجع منه المواقع المكتسبة . ومعلوم ان ماك ارثور، قائد جيوش الفيليبين، عين اخيراً قائداً اعلى لجيوش الحلفاء في استراليا وان الحلفاء يتأهبون لشن هجومهم الكبير على اليابان .

في الشرق الاوسط وينشط البريطانيون في الشرق الاوسط الذي سيمثل دوراً خطيراً في حملة ١٩٤٢ الى جمع مقادير كبيرة من الاعتدة والرجال . وتجري حركة تموين هذه القوات عن طريق البحر المتوسط بالرغم من نشاط غواصات العدو وطيرانه .